جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

قضايا إسلامية
سلسلة تصدر
غرة كل شهر عربى

الخطاب الديني والواقع المعاصر

أ . د . أحمد عبد الرحيم السايح

العدد (١٢٨)

القاهرة

شوال ١٤٢٦هـ - نوفمبر ٢٠٠٥م

يشرف على إصدارها

الدكتور/ محمود حمدى زقزوق

وزير الأوقاف

رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الدكتور/ عبد الصبور مرزوق

نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين . أحمده ــ سبحانه وتعالى ــ حمداً كثـيرًا طيبًا . والصلاة والسلام على سيدنا مجمد رسول الله خــاتم الأنبيــاء والمرسلين . وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد

فإن الواقع المعاصر للمجتمعات الإنسانية . يدعو النـــاس إلـــى الحوار . نتيجة لتقدم العلوم ، وحاجات الأمم والشعوب إلى بعضــها . وهذا يستدعى ضرورة إبراز خطاب من المســلمين يتعــاملون مـــن خلاله مع المجتمعات الإنسانية . يؤكد علـــى ثوابــت الإســلام فـــى التفاعل الحضارى ، ويبين للناس حرص الإسلام على الاستفادة مـــن الحضارات الإنسانية ، والحوار معها .

ومما لا يخفى : أن الإسلام الحنيف يحرص على كل مـــا مـــن شأنه . أن ينمى العلاقات الإنسانية ، ويدعم التفاهم بين البشر . ونجـد ذلك واضحًا فى كثير من آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرســول ــ عليه الصلاة والسلام ــ كما نجد ذلك أيضًا فـــى تعــامل الحضــارة الإسلامية مع حضارات الأمم الأخرى .

ولهذا يحرص الإسلام على إشاعة المودة والأمن والسلام ، كمــا يحرص على التعارف والتآلف . وقد قـــال الله تعـــالى فـــى ســـورة

الحجرات : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثـــى وجعلنـــاكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكـــم عنـــد الله أتقـــاكم إن الله عليـــم خبير** ﴾ [1] . ومما ينبغى أن نشير إليه . أن الإسلام يعمل على تقـــدم شئون الحياة وإقامة معالم الحضارة والعمران فـــى الأرض . وهـــذا يقتضى من الناس أن تتضافر جهودهم ــ فى تعبئة الطاقات ــ ومـــن هنا كانت الإنسانية فى أشد الحاجة فى هذا العصـــر إلـــى الحـــوار . والحاجة إلى الحوار تقتضى أو تتطلب ثلاثة أمور .

الأمر الأول : الحرص على وجود تفاهم بناء يؤدى إلى التعـــايش السلمى بين الأمم والمجتمعات .

والأمر الثانى : العمل على إنقاذ المجتمعات الإنسانية من الحيرة والقلق والضياع .

والأمر الثالث : الإخلاص فى العمل البناء من أجل الإنسانية .

وأسلوب الحوار له فى الإسلام اهتمام كبير . بدليل أن حـــوارات القرآن الكريم جاءت فى آيات كثيرة . وهذا الأسلوب يعتمـــد علـــى معطيات العلم ، والرشاد ، والحكمة ، وسلوك سبل اللين .

ومما ينبغى أن ندركه : أن الأمة الإســـلامية تحكـــم علاقاتـــها وانفتاحاتها . قاعدة أساس وهى صحة كل علاقة ، وسلامة كل حوار فى ظل الالتزام بمبادئ الإسلام وتعاليمه .

---

(١) الحجرات : ١٣ .

وعلى هذا الأساس . فإن انطلاق الأمة فى هذا العصر ، من شأنه أن يشيع فى المجتمعات الإنسانية قيم التفاهم والتواصل ، وتبادل المنافع الحيوية .

ولقد بات الواقع المعاصر الذى تعيشه المجتمعات والأمم يلح على المسلمين أن يبرزوا قيمهم الهادفة التى تساعد على إنقاذ الإنسانية من وهدة الضياع والانحراف عن طريق الاستقرار ، واستتباب الأمن .

وإبراز القيم الفاضلة يحتاج من المسلمين إلى خطاب دينى يعتمد على الحكمة والموعظة الحسنة .

ولا يخفى .. أن اهتمام الأمة ــ خاصة المؤسسة الثقافية فيها ــ بإبراز هذه الجوانب فى الواقع المعاصر يعد مساهمة فاعلة وبانية ..

والله الموفق

أ . د . أحمد عبد الرحيم السايح



الفصل الأول

الخطاب الدينى



المبحث الأول

مفهوم الخطاب الدينى

الخطاب : لغة على وزن فعال . مأخوذ من خَاطَبَ . ومصدره : خِطابًا ، ومخاطبة على وزن مفاعلة . ومعناه : الكلام والمحادثة ، ومراجعة الكلام والمشاورة فيه .

وفصل الخطاب : هو ما ينفصل به الأمر من الخطاب . بالبينة أو اليمين . فى شئون القضاء أو الحكم الفقهى .

وقيل إن فصل الخطاب : معناه : الفصل بين الحق والباطل ، وأن يميز فيه بين الحكم وضده .

وقيل أيضًا : إنه خطاب لا يكون فيه اختصار مخل ، ولا إسهاب ممل [1] .

والخطاب : الكلام . وفى القرآن الكريم : ﴿ **فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب** ﴾ [2] .

---

(١) انظر : ابن منظور ، لسان العرب . مادة خاطب . وكذلك انظر : مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط .

(٢) سورة ص : ٢٣ .

ويستعمل لفظ الخطاب اصطلاحًا بمعـان شـتى تبعًـا لطبيعـة الموضوع الذى ينصب عليه الخطاب ، وتبعًا للأغراض التى يتوقـى تحقيقها منه على النحو الذى يحدده المنطـق ، وفلسـفة التشـريع ، والأيديولوجية المتبناة فى صياغة التشريعات .

ومعنى هذا : أن الخطاب يتجاوز الشكلانية اللغوية ، ويمتد إلـى وسائل الإقناع ، ونوعية البرهان ، وأدوات الأسلوب البيانى (١) .

وفى علم اللغويات : يرى العلماء : أن الخطاب مصطلح يشـير إلى امتداد لغوى له بناء منطقى سليم (٢) .

وإذا كان الخطاب هو الكلام . فإن هذا الكلام . قد يـراد بـه : التبليغ ، أو التدليل لإظهار الحجة وإيراد الدليل ، أو التوجيه لبث قيـم فى الأقوال . تستنهض همة الغير للعمل أو إيضاح معنى ، أو الفصل فى القول . وتتفاوت قدرة الناس فى ذلك (٣) .

وإذا كان الخطاب هو الكلام الذى يتكلم به المتكلم . فـإن كـان الكلام منسوبًا إلى الإسلام الدين الذى جاء به محمد رسول الله وخـاتم الأنبياء والمرسلين . كان خطابًا وبيانًا إسلاميًا .

---

(١) انظر صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النص ، ص٩٠ ، ٢١ط: القاهرة ١٩٩٦م .

(٢) راجع سامى خشبة : مصطلحات فكرية ، صـ٢٨١ ط : المكتبة الأكاديمية ١٩٩٤ القاهرة .

(٣) الدكتور طه عبد الرحمن ، فى أصـول الحـوار وتجديـد علـم الكـلام ص ٢٧ ، ط : المركز الثقافى العربى ، المغرب ٢٠٠٠م .

أنواع الخطاب الدينى الإسلامى :

إن المتأمل ـــ أعماقًا وأبعادًا ـــ فى الخطاب الدينى الإســـلامى . يجد أن هذا الخطاب يتنوع تنوعًا يتناسب مع حالة الإنسان . فهو أولاً خطاب من آيات القرآن الكريم للإنسان . وهو ثانيًا خطاب من الرسل والأنبياء .

فأما خطاب آيات القرآن الكريم للإنسان . فهذا الخطاب يتواجـــد مع الإنسان حيثما وجد . وهو صـــالح للبشـــرية إلـــى أن يـــرث الله الأرض ومن عليها . قال تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممـــت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينًا** ﴾ [1]. فالقرآن الكريم اشـــتمل على عناصر الصلاحية لإيقاظ الإنسانية . ومن هنا جـــاء الخطـــاب القرآنى بالكليات والمبادئ والأسس التى تحتاج إليـــها البشـــرية فـــى مسيرتها .

وقد جاء الخطاب الدينى على ألسنة رجال . هم نمـــاذج بشـــرية فاضلة مختارة بعثهم الله برسالته إلى الشعوب والأقـــوام مـــن أجـــل إنقاذهم من صور الفساد فى العقيدة ، وما ينتج عنها من فســـاد فـــى الواقع الاجتماعى والاقتصادى . ونظرًا لأن فساد العقيدة كان عنصرًا

---

(١) المائدة : ٣ .

مشتركًا لدى الأقوام . فقد كان خطاب الأنبياء فى هذه المسألة خطابًا واحدًا .

ولعلك تدرك : أن الخطاب فى هذه الآيات ، وما جرى مجراها ، لكل الناس . ليتحقق المبدأ العام الذى ينبغى أن تسير عليه البشرية فى تطورها . وهو المعبر عنه فى خطاب الله للناس : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ (١) .

والآية ــ كما ترى ــ خاطبت الناس ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ أى البشر جميعًا وتكرر استعمال هذه الكلمة الدالة على الجنس البشرى فى كثير من آيات القرآن الكريم ،والرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ الذى أمر بتبليغ الإسلام . خوطب فى القرآن الكريم على هذا الأساس ﴿ **قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا** ﴾ (٢) .ولم يرسل ليكون هاديًا إلى قومه وحدهم (٣) .

ومن أمثلة الخطاب الذى يتجه إلى الذين آمنوا قوله تعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع**

---

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) الأعراف : ١٥٨ .

(٣) راجع الدكتور أحمد السايح ، معالم العلاقات الإنسانية فى الإسلام ، صـ٦٤ـ٦٦ .
ط : رابطة العالم الإسلامى . مكة المكرمة ١٤٢٣ هـ .

الصابرين * ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بـــل أحيـــاء ولكن لا تشعرون * ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ﴾ [١].وقولـــه تعـــالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشـــكروا للّـــهِ إن كنتم إياه تعبدون ﴾** [٢] .

وقوله تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلـــت لكـــم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتـــم حـــرم إن الله يحكم ما يريد * يا أيـــها الذيـــن آمنـــوا لا تحلـــوا شـــعائر الله ولا الشهر الحرام ﴾** [٣]. إلى غير ذلك من الآيات التى اتجه الخطـــاب فيها إلى الذين آمنوا . والله سبحانه وتعالى حين يخاطب الذين آمنوا . يخاطب الإيمان الذى امتلأت به قلوبهم .

ومن أمثلة خطاب أهل الكتاب قوله تعالى :**﴿ قل يا أهل الكتـــاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشـــرك بـــه شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابًا من دون الله ﴾** [٤] . وقوله تعالى :

---

(١) البقرة : ١٥٣ـ١٥٥ .

(٢) البقرة : ١٧٢ .

(٣) المائدة : ١ـ٢ .

(٤) آل عمران : ٦٤ .

﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل من بعده أفلا تعقلون ﴾ [1] .

وقوله تعالى : **﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرًا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾** [2] .

وتتنوع أنواع الخطاب فى آيات القرآن الكريم لتكون منسقة مع سنة الحياة . أن يكون فيها تنوع ، وأن يكون فيها تغير . ومن أجل ذلك نزل القرآن منجمًا حسب الظروف والحوادث . لأنه كتاب بناء . جاء بمنهاج كامل للحياة لصيانة نفوس ، وبناء أمة ، وإقامة مجتمع .

وقد يعم الخطاب فى الآيات القرآنية ، كل ما يتسع له العقل الإنسانى من خاصة أو وظيفة .

فالعقل فى مدلول لفظه العام : ملكة يناط بها الوازع الخلقى ، أو المنع من المحظور ، والمنكر .

---

(١) آل عمران : ٦٥ .

(٢) المائدة : ١٥ـ١٦ .

ومن خصائص العقل :

١ــ أنه ملكة الإدراك ، التى يناط بها الفهم والتصــور ، وهــى على كونها لازمة لإدراك الوازع الخلقى ، وإدراك أسبابه ، وعواقبه ، تستقل أحياناً لإدراك الأمور ، فيمــا ليــس لــه علاقــة بــالأوامر ، والنواهى .

٢ــ وأنه يتأمل فيما يدركه ، ويقبله ، على وجوهه ، ويســتخرج منه بواطنه ، وأسراره ، ويبنى عليها نتائجه وأحكامه .

وهذه الخصائص فى جملتها ، تجمعها ملكة (الحكيم) ، وتتصل بها ملكة الحكمة ، وهى تتصل كذلك بــالعقل الــوازع ، إذا انتــهت حكمة الحكيم به ، إلى العلم بما يحسن ، وما يقبح ، وما ينبغى لــه أن يطلبه ، وما ينبغى له أن يأباه .

٣ــ ومن أعلى خصائص العقل الإنسانى : الرشد وهــو مقــابل لتمام التكوين ، فى العقل الرشيد .. ووظيفة الرشــد فــوق وظيفــة العقل الوازع ، والعقل المدرك ، والعقل الحكيم ؛ لأنها استيفاء لجميع هذه الوظائف ، وعليها مزيد من النضج والتمام ، والتميــيز بمــيزة الرشاد حيث لا نقص ولا اختلاف .

والعقل بكل هذه المعانى موصول بكل حجة من حجج التكليـف ، وكل أمر بمعروف ، وكل نهى عن محظور .

" أفلا يعقلون ؟ أفلا يتدبرون ؟ أفلا يبصرون ؟ أفلا يتفكــرون ؟ أليس منكم رجل رشيد ؟ أفلا تتذكرون ؟ " .

إن العقل بكل عمل من أعماله التى يناط بها التكليف حجة علــى المكلفين فيما يعنيهم من أمر الأرض والسماء ، ومن أمر أنفســـهم ، ومن أمر خالقهم ، وخالق الأرض والسماء .

والعقل الذى يخاطبه الإسلام هو العقل الذى يعصــم الضمــير ، ويدرك الحقائق ويميز بين الأمور ، ويوازن بين الأضداد ويتبصـــر ويتدبر ويحسن الإدراك والروية .

وإنه ليس هو العقل الذى يقابله الجمود والعنت والضلال ، وليس بالعقل الذى قصاراه من الإدراك أنه يقابل الجنــون . فــإن الجنــون يسقط التكليف فى جميع الأديان والشرائع ، وفى كل عرف وسنة .

ولكن الجمود والعنت والضلال غير مسقط للتكليف فى الإسلام ، وليس لأحد أن يعتذر بها كما يعتذر للمجنون بجنونه ، فإنها لا تدفــع الملامة ، ولا تمنع المؤاخذة بالتقصير [١].ولما كان العقل فى الإســلام له هذه العناية الفائقة من الخطاب والتقدير ، فقد اتخــذ لــه الإســلام منهجًا فريدًا ، فى تحريره ليظل العقل عاقلاً ، والفكر راشدًا .

وهذا المنهج الإسلامى يقوم على دعائم أساســية . مــن شــأنها حراسة العقل . حتى لا يضل فى المتاهات الفلسفية .

---

(١) المصدر السابق ، صـــ٦٠ بتصرف .

ومن شأنها أيضًا ترشيد الفكر . حتى يعمل فى ميادين الخـــير ، وما يفيد المجتمع الإســـلامى ، والإنســانى . علمًـــا ، وحضـــارة ، وازدهاراً .

الدعائم التى يقوم عليها
منهج الإسلام والفكر فى تحرير العقل

الدعامة الأولى : تحرير الإنسان من أغلال الحجر العقلى ، وسيطرة التبعية العمياء ، وتربيته على حرية الفكر واستقلال الإرادة ، ليكمل بذلك عقله ، ويستقيم تفكيره ، وتكمل له شخصيته وإنسانيته . فإن كمال العقل . واستقامة التفكير ، واستقلال الإرادة هى أساس صحة العقائد ، ومعرفة الحق الذى يجب أن يتبع .

وقد عنى الإسلام ببناء هذه الدعامة عناية كبرى .

* فجعل البرهان أساس الإيمان الصادق ، والعقيدة الصحيحة ، وبين أن كل اعتقاد أو عمل لا يقوم على دلائل الحق فهو مردود على صاحبه .

* وأنذر الذين يجادلون فى الله وآياته بغير علم ، ولا هدى ، ولا كتاب منير . يقول تعالى : ﴿ **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** ﴾ [1] .

* وطالب كل ذى عقل بالنظر فى عالم السماوات والأرض ، وما فيهما من الدلائل الواضحة على وحدانية الله تعالى فى ألوهيته

---

(١) لقمان : ٢٠ .

وربوبيته ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **أولم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شئ** ﴾ [1] .

* وقال تعالى : ﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب** ﴾ [2] .

* واستنهض العقول ، ووجه الأفهام ، وأيقظ الحواس ، ونبه المشاعر ، وذلك بالتعقيب على بيان الآيات الكونية ، والتشريعية ، بمثل قوله تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ [3] ، ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ [4] .

* وذم الغافلين ، ونعى عليهم غفلتهم وإعراضهم عن دلائل الآيات الكونية ، التى يشاهدونها فى كل لحظة ، وهم عنها غافلون ، وتطالعهم **بدلائلها** فى كل آونة ، وهم عنها معرضون . كما فى قوله تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** ﴾ [5] .

---

(١) الأعراف : ١٨٥ .

(٢) ق : ٦ـ٨ .

(٣) الرعد : ٤ .

(٤) الرعد : ٣ .

(٥) الحج : ٤٦ .

* ونعى على أسرى التقليد إعراضهم عن الحق ، الذى جاءت به أنبياء الله ورسله ، وجمودهم على اتباع ما وجدوا عليه آباءهم ، وارتكابهم الفواحش باسم الدين ، تعصباً للجمود ، والتبعية العمياء ، كما قال عز وجل : ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون** ﴾ [1] .

فالتقليد الأعمى من شر ما يبتلى به الأفراد والجماعات ، لأنه يميت مواهب الفكر والنظر ، ويوجب جمودها وركودها ، ولا يميز بين الحق والباطل ، ولا بين الصواب والخطأ .

ولهذا قرر الإسلام حق الإنسان فى حرية الفكر واستقلال الإرادة ، وفتح له طريق التحرر الفكرى ، والاستقلال الإرادى ، وبوأه المنزلة اللائقة بإنسانيته وكرامته ، وعرفه أن الله تعالى لم يخلقه عبداً يقاد كما تقاد الأنعام ، ولا جعل لمخلوق حق السيطرة على عقله وفكره ، وإنما خلقه حراُ مالكاً لقيادة نفسه ، يفكر بعقله ، ويسترشد بمواهبه ، ويعمل باختياره وإرادته ، يهتدى بنور العقل فى اختياره وعمله ، ولا يظهر بمظهر العبودية إلا لخالقه ، ولا يدين فى عقائده وسلوكه إلا بدين الحجة والبرهان .

---

(١) المائدة : ١٠٤ .

وهناك أمران يحسن أن نوضحهما :

الأمر الأول : أن التقليد الذى ذمه الإسلام ، وشدد النكير على أهله ، إنما هو التقليد الذى يقوم على التبعية العمياء ، والجمود على القديم الموروث ، ومحاربة كل جديد يخالفه ، ولو كان ذلك الجديد أقوم طريقة ، وأهدى سبيلاً .

الأمر الثاني : أن حرية الفكر التى جعلها الإسلام رائداً للتفكير الدينى ، ونبراساً للعقول والأفهام فى الاهتداء إلى معالم الحق ، هى الحرية التى تطلق العقول والأفهام من أغلال الحجر العقلى ، والكبت الفكرى ، وتحررها من سيطرة التقليد والتبعية العمياء ، وتجلى لها معالم الحقائق التى كانت محجوبة عنها ، وتجعل قيادة التوجيه قيادة بناء وإصلاح وتنوير .

والدعامة الثانية : من منهج الإسلام فى تحرير العقل هى : تحرير الإنسان من أصفاد الجهل ، وظلمته . لأن الجهل يقتل مواهب الفكر والنظر ، ويطفئ نور القلوب ، ويعمى البصائر ، ويميت عناصر الحياة والقوة فى الأمم ، ويفسد على جماهير الناس مناهج الدين والتدين ، لأن أهل الأهواء والبدع يجدون فى الجهل بتعاليم الدين مجالاً واسعاً لنشر ما يستحدثونه من خرافات ، ويسارع بعض الناس بدافع الجهل والثقة العمياء إلى اعتناقها ، والعمل بها على أنها من الدين ، وهم لا يعلمون أن الدين منها براء .

ولقد عنى الإسلام ببناء هذه الدعامة عناية كبرى .

فذم الجهل والجاهلين فى مواطن كثيرة . كما فى قوله تعـالى : ﴿**يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية**﴾ (1) .

وأنحى باللائمة على الذين يتبعون الظنون والأوهام فى عقائدهم وتدينهم ، كما فى قوله تعـالى :﴿ **إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون** ﴾ (2) .

وقال تعالى : ﴿ **وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغنى من الحق شيئًا** ﴾ (3) .

وعظَّم شأن العلم وحث على طلبه ، كما فى قوله تعـالى : ﴿ **بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم** ﴾ (4) .

ونوه بفضل الحكمة وما فيها من الخير الكثير ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا** ﴾ (5) .

---

(1) آل عمران : ١٥٤ .

(2) الأنعام : ١١٦ .

(3) يونس : ٣٦ .

(4) العنكبوت : ٤٩ .

(5) البقرة : ٢٦٩ .

ورفع منزلة العلماء وجعلهم أهل خشـــيته ، وقـــرن شـــهادتهم بشهادته تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ [(١)] .

وجعل العلماء ينابيع العلم ، وموارد العرفان ، ورواد الحـــق ، ودلائل الهدى . كما فى قوله تعالى : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتـــم لا تعلمون** ﴾ [(٢)] .

وخصهم بالتعقل والفهم فى مقام ضرب المثال ، وبيـــان آيـــات الله الكونية ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **وتلك الأمثال نضربـــها للنـــاس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ [(٣)] .

وقال تعالى : ﴿ **ومن آياته خلق السماوات والأرض واختـــلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين** ﴾ [(٤)] .

وهكذا عرف المسلمون الأولون منزلة العلم ، وفضله ، وأدركوا مبلغ الحاجة إليه فى دينهم ودنيـــاهم ، وبنـــاء مجتمعاتـــهم ، ودعـــم سلطانهم ، وأنه هو الذى يوضح معالم السير على النـــــهج القويـــم ، ويفتح لهم آفاق الحياة العزيزة الكريمة ، ويكشف لهم عـــــن أســـرار

---

(١) فاطر : ٢٨ .

(٢) الأنبياء : ٧ .

(٣) العنكبوت : ٤٣ .

(٤) الروم : ٢٢ .

العوالم الكونية ، ونواميسها ، ويقيم لهم وسـائل الحيـاة ، والقـوة ، ويبنى لهم قواعد السيادة والمجد .

عرفوا كل هذا فوجهوا عزائمهم إلى طلب العلوم على اختـلاف أنواعها ، ولم يشغلهم عن طلبـها تـرف الحضـارة ، ونعماؤهـا ، ولا ثنت عزائمهم عنها بأساء الحياة وضراؤها .

واكتمل لهم من ملكات العلوم والفنون فى جيل واحـد مـا لـم يكتمل لأمة من الأمم الناهضة فى عدة أجيال ، وفى ذلك يقول بعض المؤرخين الاجتماعيين من علماء الغرب : " إن ملكة الفنون لم يتـم تكوينها فى أمة من الأمم الناهضة إلا فى ثلاثة أجيال : جيل التقليد ، وجيل الخضرمة ، وجيل الاستقلال والاجتهاد ، إلا العرب وحدهـم ، فقد تمت لهم ملكة الفنون فى الجيل الأول الذى بدأوا فيه بمزاولتها .

والدعامة الثالثة : تحرير الإنسان مـن طاعـة الأهـواء ، والانقياد الأعمى لمغرياتها ؛ لأن طاعة الأهواء من أقـوى عوامـل انحراف الإنسان فى سلوكه وفى نظره وفى تفكيره .

ولهذا عنى الإسلام بالتحذير البالغ من اتباع الهوى ، والانقيـاد الأعمى للأشياء ، فذم العاكفين على عبادة الأهواء ، والأغـراض ،

ونعى عليهم ضلالهم ، وانحرافهم عن الحق إرضاء لأهوائهم ، كما في قوله تعالى : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس** ﴾ [1] .

وقال تعالى : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون** ﴾ [2] .

وقال تعالى : ﴿ **فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم** ﴾ [3] .

وهكذا طالب الإسلام الناس بأن يطهروا نفوسهم ، وسلوكهم من الأغراض الخفية ، والأهواء الدفينة ، ويحرروا عقولهم ، وأفهامهم من الخضوع للجهل ، والانقياد الأعمى ، وبهذا يسمو المجتمع ، ويصل إلى ما قدر له من خير ومعرفة وفلاح [4] .

وإذا كان من شأن هذا المنهج الإسلامى . أن يطهر العقل ، ويقوم الفكر ، ويسير به فى الطريق المستقيم ، فإن الإسلام أتبع ذلك بمبادئ قيمة ، من شأنها أن تصل بالناس إلى طريق الحق والهدى والخير والسلام .

---

(١) النجم : ٢٣ .

(٢) الجاثية : ٢٣ .

(٣) القصص : ٥٠ .

(٤) انظر مجلة رسالة الإسلام ، ع٣ ، صـ٨٠ ، القاهرة .

ومن هذه المبادئ ما يمكن أن نذكره فيما يلى :

أولاً : إن الناس فى الفهم والتفكير وإدراك حقائق الأشياء . لن يكونوا متماثلين ، ولا متشابهين .. لأن الناس على درجات مختلفة ، ومراتب متباينة .

فهناك فريق من الناس قد لا تهيئ له حالته والظروف المحيطة به إلا شذرات من المعرفة .

وثمة فريق آخر لم تعده وراثته إلا للسطحى من الأشياء .

وكم من الناس من قصرته البيئة على القشور من الحقائق .

وكم من الناس من حصرته التربية فى دائرة ضيقة من المرئيات .. وهناك من سجنته الخرافات والأساطير .

ومن الناس من جرفه تيار المادة ، فلم يعد يرى الأشياء إلا بمنظار مادى .

لهذا طالب الإسلام مختلف المستويات الإنسانية بالنظر والتأمل والتفكير فى ملكوت السماوات والأرض .

قال تعالى : **﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت ﴾** [1] .

---

(١) الغاشية : ١٧-٢٠ .

وقال تعالى : ﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب** ﴾ [(١)] .

وهناك كثير من الآيات التى تدعو إلى التفكير والنظر فى السماوات والأرض ، وما خلق الله فيهما ليصل الإنسان إلى الإيمان بالله فيرتقى إلى السمو والكمال .

ثانيًا : لم يكتف الإسلام بتوجيه الناس فى خطابه إلى النظر ، والتفكير ، والتدبر ، بل استنهض العقول ، ووجه الأفهام ، وأيقظ الحواس ، ونبه المشاعر ، وذلك بالتعقيب على بيان الآيات الكونية والتشريعية بمثل :

قوله تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ [(٢)] .

وقوله تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ [(٣)] .

وقوله تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لأولى النهى** ﴾ [(٤)] .

وقوله تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون** ﴾ [(٥)] .

---

(١) ق : ٦ـ٨ .

(٢) الروم : ٢٤ .

(٣) الروم : ٢١ .

(٤) طه : ٥٤ .

(٥) الروم : ٢٣ .

وقوله تعالى : ﴿ **ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون** ﴾ [1] .

وقوله تعالى : ﴿ **إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾ [2] .

ثالثًا : بشر الإسلام الذين يستمعون القول فينظرون إليه نظر البصير ، ويتبعون منه ما يدل على الحق ، ويهدى إلى الرشد [3] .

كما قال تعالى : ﴿ **الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب** ﴾ [4] .

وهكذا نرى : أن الإسلام قد عمل على تطهير النفوس من الأغراض الخفية ، والأهواء الدفينة .. لأن ذاك من أكبر العوامل فى اعتدال النظر ، واستقامة التفكير .

ومن هنا كانت حملة الإسلام شديدة على الذين لا يستعملون عقولهم ، وما وهب الله لهم من قدرات ذهنية ضاربين فى بيداء الضلال ، منقادين وراء سراب البدع والأهواء .

والإسلام يريد من الناس ،كل الناس أن يعتمدوا على اليقين .. لا على الظن . لأن الظن لا يغنى من الحق شيئًا .

---

(١) البقرة : ٢٢١ .

(٢) الرعد : ١٩ .

(٣) انظر : الدكتور أحمد السايح ، أضواء حول الحضارة الإسلامية ، صـ٤٤ .

(٤) الزمر : ١٨ .

وحرية الفكر التى دعا إليها الإسلام . هى الحرية التى تطلق العقول والأفهام من أغلال الحجر العقلى ، والكبت الفكرى ، وتجلى معالم الحقائق ، وتجعل قيادة التوجيه قيادة بناء ، وإصلاح ، وإرشاد ، تستمد مقوماتها من هدى الإسلام وتعاليمه وتوجيهاته .

وطريق الفكر قد حدده الإسلام بالقرآن والسنة فيما يتعلق بالقضايا الأساسية والاعتقادية فى حياة الناس .. أما ما سوى ذلك . فإنه يمكن أن يؤخذ عن طريق الحواس والتجربة والنظر والعقل الذى يزن كل معطيات الحواس .

- ولقد عبر القرآن الكريم عن هذا الطريق بقوله تعالى : **﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾** [(١)] .

وهذه الآية تنهى عن اتباع ما لم يقم به علم يستند إلى حجة سمعية ، أو رؤية بصرية ، أو براهين عقلية ، وهى طرق الاستدلال التى تنحصر فى العقليات والسمعيات والمحسوسات .

لهذا كله أقبل المسلمون على العلم ينشدونه من مظانه ، ووجهوا عزائمهم على الفكر الأصيل .. القائم على توجيهات الإسلام .

فانتبهوا إلى آيات الله التشريعية ، وآيات الله الكونية .. ولم يشغلهم عن ذلك ترف الحضارة ، ولم يثن عزائمهم بأساء الحياة ..

---

(١) الإسراء : ٣٦ .

وأقاموا الحضارة الإسلامية التى تخطت مراحل النهوض فى تاريخ النهوض والأمم .

ولعل القارئ الكريم يعرف : أنه لأول مرة فى تاريخ الإنسانية ترى الدنيا هذه الخطوة الجبارة .

وذلك أن التاريخ الفكرى فى الأمم المختلفة ، كان يسلك سبيلاً واحدًا ، ويتدرج درجات معينة .. حتى لقد جد الباحثون فى العصر الحديث فى استخراج قوانين طبيعية لسبر العقل البشرى فى الأمم .. وذكروا أن الأطوار التى تمر بها الأمم خمسة :

أولاً : عصر سرعة التصديق ، واعتناق الخرافات والأوهام .

ثانيًا : عصر الشك ، والحيرة ، والتحرى .

ثالثًا : عصر العقيدة والإيمان .

رابعًا : عصر العقل والفكر والحضارة .

خامسًا : عصر الهرم والشيخوخة .

وإذا أراد أحد من الدارسين أن يطبق هذه القوانين التى استنبطها العلماء المتتبعون لحركة تطور الحضارات إذا أراد أن يطبقها على الفكر الإسلامى .. وجد ذلك أنه غير ممكن . لأن الفكر الإسلامى مستمد من تعاليم القرآن الكريم ، وسنة النبى الأمين .. وما كان مستمدًا من الإسلام كان أقوى من الأطوار التى جاء بها الباحثون الغربيون .

تقول الكاتبة الألمانية الدكتورة " سيجريد هونكة " :

" إن هذه الطفرة العلمية الجبارة التى نهض بها أبناء الصحـــراء التى فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة فى نوعــها ، وإن الإنسان ليقف حائرًا أمام هذه المعجزة العقلية الجبـــارة ، والتـــى يحار الإنسان فى تعليلها وتكييفها [1] .

وفريضة التفكير فى القرآن الكريم : تشمل العقـــل الإنســـانى . بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصـــــها ، ووظائفـــها ، ومدلولاتها ، فهو يخاطب العقل الوازع ، والعقل المدرك ، والعقــــل الحكيم ، والعقل الرشيد ، ولا يذكر العقل عرضــــاً مقتضيًـــا ، بـــل يذكره مقصوداً مفصلاً .

وكل خطاب إلى ذوى الألباب فى القرآن الكريم ، فهو خطـــاب إلى لب هذا العقل المدرك الفاهم ، لأنه معدن الإدراك ، والفهم فـــى ذهن الإنسان ، كما يدل اسمه فى اللغة العربية مثل قولـــه تعــالى : **﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنـــا بـــه كـــل مـــن عنـــد ربنـــا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾** [2] .

---

(١) انظر الدكتورة سيجريد هونكة ــ شمس العرب تسطع على الغرب ، صـــ١١٠ ، ط : القاهرة .

(٢) آل عمران : ٧ .

وقوله تعالى : ﴿ **يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا وما يذكر إلا أولوا الألباب** ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب** ﴾ (٢) .

ومن هذه الآيات تتبين : أن اللب الذى يخاطبه القرآن وظيفته عقلية ، تحيط بالعقل الوازع ، والعقل المدرك ، والعقل الذى يتلقى الحكمة ، ويتعظ بالذكر .

وخطابه خطاب لأناس من العقلاء لهم نصيب من الفهم والوعى ، أوفر من نصيب العقل الذى يكف صاحبه عن السوء ، ولا يرتقى إلى منزلة الرسوخ فى العلم .

أما العقل الذى يفكر ويستخلص من تفكيره زبدة الرأى ، والروية ، فالقرآن الكريم يعبر عنه بكلمات متعددة وتشترك فى المعانى أحيانًا ، وينفرد بعضها بمعناه على حسب السياق ، فى أحيان أخرى . فهو الفكر ، والنظر ، والبصر ، والتدبير ، والاعتبار ، والذكر ، والعلم ، وسائر هذه الملكات الذهنية التى تتفق أحيانًا فى

---

(١) البقرة : ٢٦٩ .

(٢) البقرة : ١٩٧ .

المدلول ، ولكنها لا تستفاد من كلمة واحدة تغنى عن سائر الكلمات [1] .

قال الله تعالى : ﴿ **الذين يذكرون الله قياما وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض** ﴾ [2] .

وقال تعالى :﴿ **هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون** ﴾ [3] .

وقال تعالى : ﴿ **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون** ﴾ [4] .

وقال تعالى : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ [5] .

بهذه الآيات ، وما جرى مجراها ، تقررت فريضة التفكير فى الإسلام ، وتبين منها : أن العقل الذى يخاطبه الإسلام هو العقل الذى يعصم الضمير ، ويدرك الحقائق ، ويميز بين الأمور ، ويوازن بين الأضداد ، ويتبصر ، ويتدبر .

---

(١) انظر عباس العقاد ، التفكير فريضة إسلامية ، صـ٨٠ ، ط : القاهرة .

(٢) آل عمران : ١٩١ .

(٣) الأنعام : ٥٠ .

(٤) يونس : ١٠١ .

(٥) النحل : ٤٣ .

وقد اتخذ الإسلام فى منهجية الوثبة أربع خطوات :

أولاً : محاربة الجمود والتقليد : لأن البناء على أسـاس عقلـى متين يقتضى تنقية الرواسب ، والأكـداس التـى خلفتـها القـرون الماضية ، وأكسبتها طابع القداسة ، فهيمنت على العقول ، وحجبتـها عن البحث ،والتأمل ، والتفكير ، والتنـافس فـى العلـم ، ورؤيـة الآخرين . وقد أنب القرآن المشركين على تمسكهم بآراء السابقين من الآباء والأجداد .ولو كانوا على ضلال مبين . قال تعالى :﴿**وإذا قيـل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كـان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون * ومثل الذين كفروا كمثل الـذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون**﴾[١] .

ثانيًا : مكافحة المكابرة والعناد والمعاندون هـم الذيـن يـرون الحقائق ماثلة أمام أعينهم ، ولكنهم يكابرون ، ويجادلون ، ويختلقـون الأكاذيب ، لطمس الحقائق ، وصرف العقول ، وهم الذى يقـول الله تعالى فيهم : ﴿ **يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يسـاقون إلـى الموت وهم ينظرون** ﴾ [٢] .

---

(١) البقرة : ١٧٠ــ١٧١ .

(٢) الأنفال : ٦ .

وإذا وضح الحق ماثلا أمامهم لا سبيل إلى نكرانـــه ، كـــابروا : **﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بينـنـــا وبينك حجاب ﴾** [1] .

فإذا أحرجتهم الحقائق الملموسة تعنتوا فى جدالـــــهم ، وطـــالبوا بالمستحيلات **﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتـــى تفجــر لنـــا مـــن الأرض ينبوعًا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالــــها تفجيرًا﴾** [2] .

ثالثًا : التأمل والاستنباط : بعد أن تتحرر العقول مـــــن أغـــلال التقاليد ، والمعتقدات الفاسدة ، وبعد أن تكشـــف أبـــاطيل المكـــابرين المتعنتين . تستطيع أن تنطلق حرة طليقة باحثة عن الحق ، متطلعـــة إلى الهداية ، منقبة عن الصواب .

وقد ناشد الإسلام المسلمين : أن يتأملوا فى ملكـــوت الســـماوات والأرض ، وأن يتدبروا ما أبدع الله من كائنـــات : **﴿ إن فـــى خلـــق الســـماوات والأرض واختـــلاف الليـــل والنـــهار لآيـــات لأولـــــى الألباب ﴾** [3] .

---

(١) فصلت : ٥ .

(٢) الإسراء : ٩٠ـ٩١ .

(٣) آل عمران : ١٩٠ .

وقال تعالى : ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾ [1] .

ولا يكتفى الإسلام بهذا ؛ بل إنه يحفز أيضًا إلى التأمل الذاتى ، فى تكويننا الجسمى ، والعقلى . قال تعالى : ﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾ [2] .

وكلما لفت القرآن نظر المسلمين إلى آية من آيات الله ، أهاب العقل أن يتدبرها ، قال تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب** ﴾ [3] .

رابعًا : النتائج العقلية مؤيدة بالبراهين . وبعد أن تنشط العقول من عقالها ، وتتدبر ملكوت السماوات والأرض ، يعينها الإسلام على الوصول إلى النتائج العلمية ، مؤيدة بالدليل الملموس . قال تعالى : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾ [4] .

وقال تعالى : ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذًا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض** ﴾ [5] .

---

(١) الغاشية : ١٧ـ٢٠ .

(٢) الطارق : ٥ـ٧.

(٣) الزمر : ٢١ .

(٤) الأنبياء : ٢٢ .

(٥) المؤمنون : ٩١ .

وهكذا نجد الحقيقة الكبرى مقررة ، مدعمة بالبرهان العقلى النافع ، الذى لا يعتريه شك أو إبهام .

ولا يكتفى القرآن فى تقرير المبادئ العليا ، بدليل واحد ، أو برهان مفرد ، بل يسوق البرهان معززاً بالبرهان ، حتى لا يدع للمكابرين حجة أو دليلاً .

والوسائل التى اتخذها الإسلام لوثبته تعتمد على خطوات عديدة : أهمها :

أولاً : التأمل ، والدراسة ، والتدبر ، فى ملكوت السماوات ، والأرض ، وما خلق الله من كائنات .

ثانيًا : البحث العلمى بالانتشار فى أقطار الأرض ، لدراسة الجبال والأنهار والصحارى والبحار ، ومعرفة النبات ، والحيوان ، ووسائل الاستفادة من كل هذه الكائنات .

قال تعالى : ﴿ **الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه** ﴾ [١] .

(١) إبراهيم : ٣٢ـ٣٤ .

وقال تعالى : ﴿ **هو الذى أنزل من السماء ماءً لكم منه شـــراب ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتـــون والنخيـــل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون * وسـخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فـــى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾[1] .

فالله سبحانه وتعالى لم يخلق هذه الكائنات عبثًا ، وإنما ســـخرها للناس لينتفعوا بها بعد دراسة أساليب هذا الانتفاع علـــى أن يســـتخدم الناس العقل والحواس معًا فى سبيل استنباط أيسر الســـبل ، وأســـهل الوسائل لهذا الانتفاع .

وكثيرًا ما يلفت القرآن الكريم إلى أن وسيلة العلم هى : البحث ، والتفكير قال تعالى : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمـــون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾ [2] .

وقد يغفل الناس عن أمر فيلفتهم إليه ليســـتغلوه قـــال تعـــالى : ﴿ **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس** ﴾ [3] .

---

(١) النحل : ١٠ــ١٢ .

(٢) النحل : ٧٨ .

(٣) الحديد : ٢٥ .

ثالثًا : الاستفادة مما تركه السابقون من معارف ، وعلوم وآثار ، ليمحصوها ويدرسوها ، ثم يضيفوا إليها ، ما يهديهم إليه البحث من حقائق ونظريات .

لأن الحضارات والمعارف الإنسانية سلسلة محكمة متينة الحلقات يؤثر سابقها فى لاحقها ، ويتأثر حاضرها بماضيها . والحضارات الإنسانية ليست ملكًا لأمة بعينها ، ولا هى وقف على جماعة من الناس . لأنها صرح هائل ، ساهمت فيه كل أمة بنصيب . وهناك كثير من الآيات فى قانون السير والنظر والاتعاظ والتنبيه . قال تعالى : ﴿ **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق** ﴾ [١] .

وللاتعاظ بما وقع فيه السابقون من أخطاء . قال تعالى : ﴿ **أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها** ﴾ [٣] .

---

(١) العنكبوت : ٢٠ .

(٢) الروم : ٩ .

(٣) الحج : ٤٦ .

وكثيرًا ما يضرب القرآن الكريم الأمثلة بالأمم السابقة . قال تعالى : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد * وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذى الأوتاد * الذين طغوا فى البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب * إن ربك لبالمرصاد**﴾ [1] .

وكثيرًا ما يلفت القرآن الكريم النظر إلى أن الحكمة ضالة المؤمن يلتمسها أنى وجدها . قال تعالى : ﴿ **وفى الأرض آيات للموقنين** ﴾ [2] .

رابعًا : الرحلة فى طلب العلم . فقد ذكر الله عز وجل فى القرآن الكريم رحلة نبيه موسى فى طلب العلم إلى العبد الصالح ، وانتقاله معه ، دارسًا متعلمًا .

وتلبية لهذا الأمر شد المسلمون الأوائل الرحال ، وقطعوا الفيافى ، وجابوا البحار فى طلب الحديث ، والفقه ، وعلوم الدين والدنيا ، فنشروا العلم فى أنحاء الأرض ، ونهضوا بالثقافة الإنسانية إلى أعلى المستويات ، وأسسوا حضارة علمية ، سيطرت على العالم كله مئات السنين .

---

(١) الفجر : ٦ : ١٤ .

(٢) الذاريات : ٢٠ .

ومن أنواع الخطاب الدينى :

خطاب العلماء والمصلحين والمفكرين . وهذا الخطاب قائم علـى محاولة الإنسان فهم الخطاب الإلهى ، ومحاولة اســتنباط الأحكــام ، والاسترشاد بآيات القرآن الكريم فى غير جمود . وفى هذا الخطـــاب يعطى الإسلام مسلحة واسعة للعقل الإنسانى . فى إطار الثوابت التـى جاء بها الإسلام[1] . قال تعالى فى وصف عباد الرحمن : ﴿ **والذيـــن إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً** ﴾ [2] .

وعباد الرحمن الذين عاش الإيمان فى نفوسهم أمــــلاً وحقيقــة ، وتجدد فى حياتهم سلوكًا ووقائع . لم يستقبلوا هذا الإيمــــان اســـتقبال الجاهل المتحجر ، والتابع المقلد . الذى يبنى إيمانه علـــى التلقيـــن ، ويتعامل مع الأفكار . وهو غائب الوعى ، ذاهل الإحساس . يأخذ من الأفواه ليقلد فى فهمه ومواقفه من يوحــــون إليـــه ، ودونمـــا وعـــى أو تأمل .

وهؤلاء الذين خوطبوا بآيات القرآن الكريم . استعملوا أســـماعهم وأبصارهم فيما خوطبوا به . واستعمال الأسماع والأبصار . يصــــل

---

(١) انظر الدكتور أحمد السيد رمضان تجديد الخطاب الدينى ، صــ٧ط : الدار الإسلامية ١٤٢٣هــ .

(٢) الفرقان : ٧٣ .

بالإنسان إلى العقلانية الواعية التى تـــأخذ بالإنســان إلـــى طريـــق الرشاد .

ومما ينبغى أن ندركه : أن العقل يحتل فى الصيغة الفكرية فـــى الإسلام مكانة عالية بوصفه وسيلة الإنسان فى الكشف عـــن أســـرار الخالق فى الكون ، وفى الأنفس منفردة ومجتمعة ــ وفى قدرته علـــى الإدراك الحسى ، والتصور العقلى ، والقيام بعمليات عقلية لاستيعاب المعارف ، واختزانها ، واستدعائها ، وتوظيفها ، وتوليـــد معـــارف جديدة ومتجددة يستخدمها الإنسان فى حياته ، ويحدث مـــن خلالـــها تحويلات وتعديلات فى مواد الكون وعناصره وصولاً إلى تنمية حياة البشر وترقيتها ، والانتفاع بكل ما فى الكون فى حدود ما قدر خـــالق الكون [١] .

وقد دعا القرآن الكريم بطريق مباشر وغير مباشر إلى تعظيـــم العقل ، والرجوع إليه . ويحرص القرآن على تـــأكيد هـــذا التعظيـــم حرصًا يلفت النظر ويثير الاهتمام .

ويشير القرآن إلى العقـــل ، ومعانيـــه المختلفـــة ، ومشـــتقاته ، ومترادفاته . فى عشرات الآيات . مستخدمًا لذلك كل الألفـــاظ التـــى تدل عليه ، أو تشير إليه من قريب أو بعيد .

---

(١) انظر : الدكتور أحمد المهدى عبد الحليم . السمات المنشودة فى الخطاب التربوى الإسلامى . مجلة " إسلامية المعرفة عدد رقم ٢٩ ، صـــ٨١ .

المبحث الثانى

مفاهيم وتعريفات

أولاً : الحوار :

بداية يحسن بنا أن نعرض لمفهوم الحوار . ومفهوم الحضارة . حتى نتعرف على حوار الحضارات ، وننطلق لرؤية واضحة تكشف عن ضرورة الحوار للإنسان ، وحاجة الإنسان إليه .

والحوار هو : الرجوع عن الشئ ، وإلى الشئ ، يقال : حار إلى الشئ وعنه حوراً ومحاراً ومحاورة : رجع عنه وإليه .وفى الحديث : من دعا رجلاً بالكفر وليس كذلك حار عليه " أى رجع إليه ما نسب إليه ، والمحاورة ، مراجعة المنطق ، والكلام فى المخاطبة [1] .

قال تعالى : ﴿ **قال له صاحبه وهو يحاوره** ﴾ ، أى وهو يراجعه الكلام ويجادله [2] .

---

(1) ابن منظور ، لسان العرب ، جـ١ ، صـ٧٥٠ ، ط : دار لسان العرب ، بيروت .

(2) سعيد حوى : الأساس فى التفسير ، جـ٦ ، صـ٣١٨٤ ، ط : دار السلام ، القاهرة ، سنة ١٤٠٥هـ .

وعلى هذا جاء استعماله فى القرآن الكريـــم . فقــال الراغــب الأصفهانى : والمحاورة ، والحوار : المراجعة فى الكلام ، ومنــه : التحاور ، قال الله تعالى : **﴿ والله يسمع تحاوركما ﴾** (١) .

وحقيقة الحوار اللغوية مطابقة لحقيقته الاصطلاحية التى تعنـــى التباحث بين طرفين أو أكثر ، ومراجعـــة الكـــلام بينـــهم بغــرض التوصل إلى اتفاق وإبداء وجهة نظر .

والتحاور : التجاوب . لذلك كان لا مندوحة فى الحوار من متكلم ومخاطب ، ولابد فيه من مراجعة الكلام وتبادله وتداولـــه . وغايـــة الحوار : توليد الأفكار الجديدة فى ذهن المتكلم . لا الاقتصار علـــى عرض الأفكار القديمة ، وفى هـــذا التجــاوب توضيــح للمعــانى ، وإغناء للمفاهيم يفضيان إلى تقدم الفكر (٢) .

ويذكر العلماء : أن قاعدة القواعد فى النظام الكونى هى حـــوار الكائنات . وإن جاءت ليأخذ بعضها من بعض ، ويعطـــى بعضـــها البعض . كما هى طبيعة المحاجة ، فيكون الانسجام والشـــد والعقــد والاستمرار .

---

(١) الراغب الأصفهانى : مفردات القرآن ، صـــ١٣٥ ، والآية فى مفتتح سورة المجادلة.

(٢) انظر : حسين حمادة : الحوار فى القرآن ، مجلة المعارج ، المجلد الأول ، ع٨ ، صـــ٣٦ ، بيروت ، سنة ١٤١٢هـــ .

فالحوار ليس قصرًا على الكلمات اللسانية المسموعة ، إنما قـــد يتجاوز إلى الإشارة الموضحة ، والبسمة المشرقة ، والحس الخافق ، والعمل الصالح ، والموقف الصالح ، حتى الصمت لا يبعد أحيانًـــا أن يتأتى حوارًا .

ثانيًا : الحضارة :

أما الحضارة ؛ فإنها مأخوذة من الحضر ، والحضـــر خـــلاف البدو ؛ والحاضر خلاف البادى . وفى الحديث : " لا يبيـــع حـــاضر لباد " والحاضر المقيم فى المدن والقرى ، والبادى المقيم بالباديـــة . ويقال : فلان من أهل الحاضرة ، وفلان من أهل البادية ، والحضارة ـــ بكسر الحاء ـــ الإقامة فى الحضر . وكـــان الأصمعـــى يقـــول : بالفتح قال القطامى :

فمن تكن الحضارة أعجبته .. فأى رجال بادية ترانا .

ومفهوم كلمة " الحضارة " مفهوم تطور مع الزمن لا سيما فـــى تاريخ الحياة العربية . ولقد عرف العرب الفارق بين حيـــاة الباديـــة وحياة الحضر ، ومنذ كانت بادية ومنذ كان حضر . ولكن أول مـــن تصدى لهذا التمييز على أساس الدراسة الواعية هـــو العلامـــة عبـــد الرحمن بن خلدون [١] .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، جـ١ ، صـ٢١٠ـ٢٣٠ ، ط : دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٦٧م .

ويرى : أن الحضارة هى النمط من الحيـــاة المســـتقرة والـــذى يناقض البداوة ، ويضفى على حياة صاحبه فنونًا منتظمة من العيـــش والعمل والاجتماع والعلم والصناعة ، وإدارة شئون الحياة والحكـــم ، وترتيب وسائل الدعة وأسباب الرفاهية (١) .

والحضارة فى فكر ان خلدون " طور طبيعى أو جيل من أجيـــال طبيعية فى حياة المجتمعات المختلفة وأنها غاية العمران (٢) .

والباحث يجد أن مفهوم الحضارة فى العصور المتأخرة قد امتـــد إلى ألوان من المعنى هى أبعد وأوسع مما رآه ابن خلدون فى عصره ، وفى البيئة العربية ، وفى مفهومه العام . والحديث المعاصر بصفـــة خاصة قد أصبح أكثر اتساعًا مما يدل عليه اللفظ فى مفهومه اللغـــوى التقليدى .

ولذا جاء فى المعاجم الحديثـــة ، أن الحضـــارة هـــى : الرقـــى العلمى ، والفنى ، والأدبـــــى ، والاجتمـــاعى ، والاقتصـــادى فـــى الحضر .

وبعبارة أخرى أكثر شمولاً هى : الحصيلـــة الشـــاملة للمدنيـــة والثقافة والفكر ، ومجموع الحياة فى أنماطها المادية والمعنوية .

---

(١) الدكتور أحمـــد عبـــد الرحيـــم الســـايح ، أضـــواء علـــى الحضـــارة الإســـلامية ، صـــ١٧ط : دار اللواء بالرياض ، ١٤٠١هـــ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، جـــ١ ، صـــ٦٥٦ ـــ٦٥٧ .

إن الحضارة تنشأ حينما يستلهم الناس عزمًا واضحًا صادقًا على بلوغ التقدم ويكرسون أنفسهم تبعًا لذلك لخدمة الحياة وخدمة العالم [1] .

والحضارة باختصار شديد : هى جملة المظاهر المعنوية التى يخلفها التاريخ والتى تبقى فى المجتمع على مر الأيام دليلاً على القدرات الذهنية المميزة ، وتعبيرًا عن روح هذا المجتمع والشعب الذى يمثله .

لقد عرف العلماء الحضارة تعاريف متباينة ،وتحدثوا عنها من وجهات نظر مختلفة ، ولما كانت الحضارة إنسانية النشأة ؛ كان علينا أن نختار من تعريفات الحضارة المتعددة تعريفًا ذكره العلامة الفرنسى " جورج باستيد " جاء فيه : إن الحضارة هى التدخل الإنسانى الإيجابى لمواجهة ضرورات الطبيعة ، تجاوبًا مع إرادة التحرر فى الإنسان ، وتحقيقًا لمزيد من اليسر فى إرضاء حاجاته ورغباته ، وإنقاصًا للعناء البشرى [2] .

فالسلوك الإنسانى الذى ينتج الحضارة هو استجابة لتحد من ظروف الطبيعة يكون هو المثير والدافع والحافز للإنسان كى يتغلب

---

(١) البرت أشفيشر : فلسفة الحضارة ، ترجمه عن الألمانية : الدكتور عبد الرحمن بدوى ، صــ٥ ، ط : دار الأندلس ، بيروت .

(٢) جورج باستيد : كتاب المدنية ، ترجمه : عادل العوا ، صــ١٢ ، ط : دمشق .

على ما يواجهه ، ومن ذلك عامل فى طبيعة الإنسان نفسه مثل حاجاته للطعام ، والشراب والدواء ، والاستقرار والأمن ؛ وهناك منافسة الإنسان الآخر له على ذلك ؛ ثم ما يكون من قصور ظروف بيئته المادية عن تلبية هذه الحاجات [١] .

فالحضارة تحقيق للراحة الإنسانية فى جوانبها المتعددة ، المتقابلة المتكاملة جسدية ، وعقلية ، ونفسية ، وروحية .

والحضارة على أى حال تمثل كل مظهر من مظاهر الإنتاج البشرى . غالبًا ما يحدوها سلوك الإنسان وطرق معيشته وتفاعله مع البيئة . ولذا كان من الطبيعى أن تختلف كل حضارة فى مظاهرها عن الحضارات الأخرى ، فلكل حضارة من الحضارات قديمها وحديثها مظاهر مميزة [٢] .

---

(١) انظر : المصدر السابق ، صـ١١٧ ، والدكتور محمد فتحى عثمان : القيم الحضارية فى رسالة الإسلام ، صـ١٦ .

(٢) انظر : الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور : معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ، صـ٢ ، ط : دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٩م .

المبحث الثالث

الجذور التاريخية للحوار

اعتمدت المجتمعات منذ أقدم العصور على الحوار فى التعليم ، ونقل الأفكار والقيم والثقافة السائدة فى المجتمع ، والمحافظة عليها ، ولم يكن الحوار مجرد أداة تعليمية تستخدم داخل المدرسة التى هى فى جوهرها شكل من أشكال العلاقة القائمة بين الأفراد والمؤسسات المختلفة أيضًا داخل المجتمع .

وبالرجوع إلى تاريخ الحوار يتضح أن طريقة الحوار أصبحت طريقة ذات ملامح متميزة على يد سقراط ، صحيح أنها كانت لها بذور عند السوفسطائيين ، ولكنها لم تكن قد اتضحت معالمها ، وقد اعتمد السوفسطانيون على المقدرة الكلامية والقوة البيانية أكثر من اعتمادهم على الدليل والمنطق والبرهنة ؛ فكل كلام مزوق عندهم ، وكل عبارات منمقة فى رأسهم هى الطريقة لكسب المنفعة ، أما البحث وراء الحقيقة فعبث باطل . وقد استعمل اليونانيون الجدل بمعنى التحاور أو التخاطب بين الناس ، حيثما كان أهل أثينا يعدون الجدل فنًا عاليًا ، أو فن البحث عن الحق .

أما طريقة الحوار عند سقراط ، فتعتمد علـــى طـــرح الأســـئلة والإجابة عنها ، ومناقشة الإجابات عن طريق الأسئلة أيضًا .. وهـــذه الطريقة تمر بثلاث مراحل : **الأولى** : أسئلة يقصد منها أن يكشـــف الشخص بنفسه أنه علىٰ باطل ، وليس محقًا فى اعتقاده .

والمرحلة الثانية : أسئلة يقصد منها أن يعرف الشـــخص أنـــه جاهل لا يعرف الحقيقة ؛ لذا فهو فى حاجة إلى سقراط يرشده إليها ، **وأخيرًا** .. أسئلة يقصد بها أن يصل الشخص المخطئ أو الجاهل إلـــى الحق والصواب بنفسه .

وفى العصر الجاهلى مارس العربى نوعًا آخر من المحـــاورات فى المنافرات وهى تقترب من خطب إصلاح ذات البين التـــى كـــان يقيمها الجاهليون ؛ فيقيم المتخاصمان حكمًا يقران به ، وينهض كـــل منهما للتفاخر أمامه ، متغنيًا بشرفه وشرف ذويه ، وإظهار عيـــوب منافسه ومساوئه .

الحوار فى العصر الإسلامى :

كان العصر الإسلامى فى مجمله تنازعًا فكرياً اجتماعيًا ، إلـــى جانب التنازع السياسى الذى حدث بين الرسول ﷺ والقرشـــيين فـــى مستهل الدعوة ، وبين المشركين والمسلمين بعد وفاة الرســـول ﷺ . وقد ازدهر دور الكلمة فى المجتمع ، وخاصة بعد أن أخذ التخـــاصم بين النبى ﷺ والقرشيين صورة الحرب الفكرية ، وما تطلبتـــه مـــن

جدل وحوار ؛ فلا يكاد يقال قول حتى يعارضه رأى آخر ؛ لكى يولد من الإنسان القديم مرة أخرى إنسان جديد متفتح على عوامل الخـــير والعدالة .

ولهذا كان من الطبيعى أن يأتى الإسلام ـــ الذى أطلق العقــول ، وحطم أغلال الوثنية ، وتعامل مع الفلسفة الإغريقية ـــ ليعلم المســلم كيف يحاور ، وكيف يجادل بالتى هى أحسن . وهذا الحوار لا يتحقق إلا بتبادل الآراء فى جو تسوده الشورى والحرية والصراحة .

ومن هنا : فإن الإسلام لم ينظر إلى الحوار علـــى أســاس أنـــه ترف فكرى ، يدرب الإنسان على الانتصار والتفـــوق ؛ بـــل علـــى أساس أنه ضرورة تكسب الإنسان القدرة على استعمال أدوات الدفـاع عن الحق بطريقة أكثر مرونة وذكاء .

ولهذا ذم الله الأمم السابقة التى تتبع آراء أســـلافها دون تفكـــير وتمحيص ، وعن عمى وجهل .

وقد كان للأفكار الجديدة ، التى دعا الإسلام جميع الناس إليها ـــ حيث دفعهم إلى إعمال الفكر والتحرر من القوالب الجـــامدة ـــ أثـــره الكبير فى ازدهار الحوار ، كما كان للصراع الذى دار بيـــن الدعـــاة إلى الله والمشركين المعاندين وغيرهم ، فى محاولة كل منهم جـــذب الآخر إليه عن طريق الإقناع والاستمالة ؛ أثره الكبـــير أيضًـــا فـــى

ازدهار الحوار : وذلك منذ اللحظة الأولى التى أمر الله فيها الرسول ﷺ أن يصدع بما يؤمر ، وكانت أولى وسائله هى الحوار مع قومه .

وقد ضرب الرسول ﷺ أعظم الأمثلة حين حاول أن يقنع قومه فى حوار رائع : فقال لهم : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؛ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذباً قط ، قال : فإنى نذير بين يدى عذاب شديد .. وكأنه ﷺ يضرب لنا مثلاً لأعظم محاور يستطيع أن يستخدم أدوات الإقناع والأدلة والبراهين والشواهد ؛ ليقنع قومه بالدين الجديد .

ومن ذلك أيضًا حواره مع المشركين عندما جاءوا يجادلونه ويستميلونه بالمال تارة ، والجاه تارة ؛ لينصرف عن الدين [1] ، وكان الرسول ﷺ دائمًا الطرف الأكثر إقناعًا بقوة حجته ، وسلامة منطقه .

وقد كثرت المحاورة فى الخطابة الإسلامية ، وأصبحت أسلوبًا أساسيًا مؤثرًا من أساليبها المتعددة ؛ تبعًا لتعدد المواقف الداعية إليها ؛ من تبادل للآراء ، أو لاختلافها أو مطالبة فئة معينه من طوائف المجتمع بحق أو بمطلب خاص . وهنا يشتد الحوار وتتولد

---

(١) إبراهيم أحمد الوقفى : الحوار لغة القرآن والسنة النبوية ، دار الفكر العربى ١٩٩٣م .

المحاورة ؛ لأن كل فئة تريد أن تدلي برأيها ، وفي الوقت نفسه تستند إلى حجة تؤيد بها دعواها ، وتدحض حجة محاورها .

ولقد اتخذت المحاورة في الخطابة الإسلامية ألوانًا مختلفة ومتعددة ؛ فأحيانًا تكون هادئة ومثمرة ؛ فلا يراد إلا الوصول إلى الحق ، ومعرفة الصواب والتزامه ، مثل الحوار الذي دار بين الرسول ﷺ وبين الصحابة قبل غزوة بدر ، وكذلك حواره معهم بعد الغزوة حول ما يجب عمله تجاه الأسرى .

وكذلك الحوار بين المهاجرين والأنصار يوم السقيفة ، وجميعها حوارات هادئة لا غلظة فيها ولا لحاجة ، ولا مغالطة ، ولا انفعال .

وعلى العكس من ذلك تجد حوارات المشركين مع الصحابة أو الرسول ﷺ ؛ حيث تغلب عليها العصبية والجاهلية ؛ إذ الهدف ليس الوصول إلى الحق والصواب ، بقدر ما يكون العناد واللجاج والمكابرة ، وتحكيم الأهواء والأغراض ، والصد عن الدعوة الإسلامية .

وأول مصدر تعلم منه المسلمون فنون الحوار المختلفة هو القرآن الكريم ؛ فقد جاء وبه فنون تعليم الكلام ؛ معتمدًا على الإقناع والتأثير – بطريقة دفعت الناس إلى أن يتبعوه ويسيروا على نهجه – والحجج والبراهين التي تعطي الفكرة القوة الإقناعية .

والقرآن الكريم يجعل كل قضاياه سبيلها الحوار ، ويجعــل كــل خلافه مع أعدائه ومخالفيه قائمًا على الحوار المنتج الهادئ الرزين .

الحوار فى عصر الصحابة :

امتاز الحوار فى عصر الصحابة بآداب سامية ، وربما كان ذلك يرجع إلى احتكامهم إلى كتاب الله وســنة رســوله ﷺ عنــد وقــوع الخلاف ، كما أن المجتمع لم يكن قد ابتعد كثيرًا عن هدى النبـــى ﷺ وسنته .

وكانت الحقيقة وحدها هدف المختلفين ؛ حيث لا يهم أحدهــم أن تظهر الحقيقة على لسانه أو على لســان أخيــه ، وكذلــك امتــازوا بالتزامهم آداب الإسلام مع انتقاء أطيب الكـــلام ، وتجنــب الألفــاظ الجارحة فى الحوار والجدال ، مع إحسان كل منهم للآخر ، وتنزههم عن التمادى فى الحوار بغير حق ، وبذلهم أقصى أنواع الجــهد فــى موضوع البحث ؛ مما يضفى على الحوار صفة الجدية ، واحـــترام الآراء المطروحة ، ويدفع المخالف لقبول الرأى الصحيح دون شعور بالحرج والضيق [١] .

والأسباب التى كانت تؤدى إلى اختلاف الصحابة فى مجموعــها لم تكن لتخرج عن تباين فى فهم النص : لغوى كان أو اجتـــهادى ،

---

(١) بركات محمد مراد : منهج الجدل والمناظرة فى الفكر الإسلامى ، صـ٤٧ ، الصـدر لخدمات الطباعة ١٩٩٠م ، القاهرة .

وتعالج بأدب إسلامى خالص ؛ لذلك سرعان ما كانت هذه الاختلافات تضمحل وتزول بلقاء الرسول ﷺ ، أو الاحتكام إلى نص القـــرآن أو السنة .

وجاء الحوار حول ثلاثة موضوعات ؛ هى :

أ ـ الحوار حول الإمامة أو الخلافة .

ب ـ الحوارات التى كانت فى عصر عثمان رضى الله عنه .

جـ ـ ت الحوارات التى كانت فى عصر الإمام علـــى رضـــى الله عنه .

الحوار فى العصرين الأموى والعباسى :

وكان لانتشار الفرق الإسلامية فى العصرين الأموى والعباســى التى تبلورت آراؤها فى شكل المدارس التى تدافع عـــن اتجاهاتـــها وأصولها العقائدية والفكرية الأثر الكبير والعظيم فى ازدهـــار فنـــون الحوار ؛ **الذى كان يميل أحيانًا للوصول إلى** الحق . فيكون حـــوارًا **حقيقيًا ، وأحيانًا يقصد به تغليب مذهب فكرى** على آخر ، أو تغليـــب رأى على آخر فيكون جدلاً .

وقد ساعد على ازدهار الجدل التعصـــب عنـــد بعـــض الفـــرق الإسلامية ودفاعها عن آرائها بشدة ، اعتقادًا منها أنـــها علـــى حـــق وسواها على باطل ، كما أن هجرة العلماء من بلد إلى آخر ، وطلبهم للعلم والاستزادة منه ، ونشر أفكار وآراء هذا الديـــن بيـــن مختلـــف

الشعوب ، كان باعثًا قويًا على الاحتكاك الفكرى ، ونشـــأة الجــدل ، وكثرة المحاورة والمناظرة ، وساعد أيضًا على هذا الحوار والجـــدل تولد الفرق من بعضها ؛ حتى أصبحت كل مدرســـة فكريـــة تضــم عشرات الفرق الإسلامية .

واستمرت الندوة فـــى أداء دورهـــا فـــى العصريـــن الأمـــوى والعباسى ، وفيها كانت دور فنون الحوار والتشاور ، وكذلـــك فـــى مجالس الخلفاء ، وفى المساجد ، والقصور .

ومن اللافت للنظر فى العصر الأموى الحوارات التـــى كـــانت تتخلل خطب الوافدات على الخلفاء ، وكانت هذه الوافدة غالبًا ما تقـدم على الخليفة ، وقد سبق لها أن قالت ضده شعراً ، يحفظه الخليفـــة أو أحد حاشيته ، فيعاد عليها هذا الشعر ، وتعاتب فيه ، فتقره ، وتصمــم على رأيها ، ولكن الخليفة فى النهاية يجزل لها العطاء .

وقد سادت المناظرات فى هذا العصر ، لأن الحياة العقلية كـــانت لها السيادة ، وعظم أمر العلم ، وصارت المجالس ميدانـــاً للمســـابقة الكلامية والجدلية بين زعماء الفرق الإسلامية ، وكـــان المتكلمــون يصرون على بلاغة الكلام والتأثير بالإقناع بعد الإفحام [١] .

وبالإضافة إلى ما سبق ، فإن العصر العباسى كان عصر نضـــج العلوم العربية وبداية الازدهار الفكرى ، وتكويـــن المـــدارس فـــى

---

(١)انظر : الدكتور أحمد السايح . أضواء على الحضارة الإسلامية صـــ ١٢٠ .

مختلف العلوم المرتبطة بالقرآن والسنة ، كما ازدهرت حركة الترجمة من اللغات الفارسيّة واليونانية والهندية إلى العربية ، وتمكنت العقول من استيعاب ذلك كله وهضمه وتمثيله ، وتحويله إلى نظريات ومناهج تخدم العقيدة إثباتاً ودفاعاً ، ومادة تساعد على ازدهار الفكر والثقافة .

المبحث الرابع

حوار الحضارات فى المفهوم الإسلامى

تعد قضية الحوار مع الآخر . فريضة إسلامية . اقتضتها دعـوة الإسلام ، التى اعتمدت فى رسالتها إلى الإنسانية . منطق الرفـــق . واللين والمجادلة بالتى هى أحسن .. ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمـــة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمـــن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ [1] .

ولعل الحوار فى أدق معانيه ودلالاته الاصطلاحية يعـــبر عـــن اتجاه سام بالمجتمعات الإنسانية . بعيدًا عن نزق الأهواء ، وجمـــوح العواطف ، وغائلة الظلم ، والتعصب ، والانفلات .. والحوار إلـــى جانب هذا ، يعد من أرقى الوسائل إلى إقـــرار الحـــق ، والعـــدل ؛ والمساواة فى دنيا البشر .

إنه توظيف حيوى لملكات الخير فى النفس البشرية ، كى تعمـــل دورها فى الحياة للحيلولـــة دون انحـــدار البشـــر علـــى اختـــلاف انتماءاتهم الحضارية إلى شفا الحروب والصدامات .

---

(١) النحل : ١٢٥ .

والإسلام ابتداء ، ومن منطلق دعوته الكونية لم يضمر لأحد من الناس كيدًا . ولا ضغينة ، ولا حقدًا قط ، " فالإسلام يريد لعالميته أن - تؤدى دورها ولا يريد أن يدفع الشعوب الأخرى أن تأخذ بالإسلام قهرًا وقسرًا " [1] .

فغير المسلمين اعتمد القرآن فى خطابه إليهم منهج الحوار ، ولا سيما القضايا الأكثر حرجًا وتعقيدًا ، وذلك صيانة للمسلمين والمؤسسات ؛ فرغم خلاف المسلمين العقدى معهم . لم يشأ الله للمسلمين التعرض إليهم بسب أو تجريح ؛ تلافيًا لما قد لا يعود بنفع على دعوة الله عز وجل فى الأرض : **﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾** [2] .

فلما كان الأمر يقتضى جمعًا للجهود : أرشد الله تعالى المسلمين إلى كيفية مخاطبتهم : **﴿ قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون ﴾** [3] .

---

(١) منير شفيق : قضايا التنمية والاستقلال فى الصراع الحضارى ، صـ٩١ ، دار الناشر ، بيروت ، ١٩٩٢م .

(٢) الأنعام : ١٠٨ .

(٣) آل عمران : ٩٩ .

ولما كانوا أصحاب عقائد أخذ القرآن الكريم يخطب ودهم ، متوسلاً بما ينبغى الالتقاء عليه ، والالتفاف حوله ، والعمل من أجله .. **﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾** (١) .

والإسلام فى هذا السياق يعتنى بالأصول والكليات ، ويهتم بما هو أهل للاتفاق عليه ، دون خوض فى تفاصيل ثانوية !! ولعل الدعوة القرآنية إلى اعتبار إبراهيم عليه السلام رمزًا مشتركًا لقضية العقيدة من دلالات كانت الرغبة الصادقة فى النأى بآليات الحوار الحضارى عن أجواء الاختلاف والتوتر والعصبية (٢) .

﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (٣) .

---

(١) آل عمران : ٦٤ .

(٢) عطية فتحى الويشى : حوار الحضارات وإشكالية التصادم ، وآفاق الحوار ، الكويت ، مكتبة المنار الإسلامية ، ٢٠٠١م ، صـ٢٦٦ .

(٣) البقرة : ١٣٦ .

ولقد اقتضت عالمية الإسلام : شق قنوات اتصال بالآخرين ، ومد يد التعاون والتفاعل الإيجابى معهم ، وذلك وصولاً إلى تحقيق قدر معقول من التوازن فى حركة الحياة ، وكذلك صياغة توليفة تناغمية جيدة من تلك الأضداد المتنوعة وبوسائل ربانية حانية فى قوله تعالى : ﴿ **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم** ﴾ (١) .

أما من استغنى : فللإسلام بشأنه العقود والمواثيق ، فلقد كانت المدينة المنورة مقامًا خليطًا من الملل والأعراق والعصبيات ؛ فاتجه النبى ﷺ إلى وضع دستور تتحدد من خلاله معالم الوحدة الاجتماعية، وتصورات التعايش الحضارى مع أصحاب الرسالات وأهل الذمم والعهود .

قال ابن إسحاق : " وكتب رسول الله كتابًا بين المهاجرين والأنصار ، ودعا فيه اليهود وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم : أن اليهود يقفون مع المؤمنين ما داموا غير محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، وأن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف .. وإن الله جار لمن بر واتقى"(٢) .

---

(١) فصلت : ٣٤ .

(٢) عبد الملك بن هشام : السيرة النبوية ، جـ ٢ ، ص ١٢٨ مصر ، دار الريان سنة ١٩٨٧.

يقول المفكر أودين أكالفيرى **kalvakry** : لم يحمل المسلمون أثناء غزواتهم المنتصرة هذه أحدًا من المسيحيين أو اليهود على اعتناق الإسلام ، فلقد أقر الإسلام لأهل الكتاب بحرية التدين وإقامة شعائرهم(١) .

ومن ثم وضع الإسلام بفتوحاته ــ التى امتدت شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا ــ عن البشرية أغلالها وفك أسرها ، واعتنى بكرامة الإنسان وحفظ حقوقه أيما حفظ وعناية .

ولقد أقر السيد أنتونى ناتانج **Antony Natang** فى مذكراته بهذه الحقيقة الناصعة حيث ذكر : " وطبقًا لشهادة المؤرخين المسيحيين : فقد صدرت أوامر صارمة إلى الجنود المسلمين إبان الحروب الصليبية بحماية أرواح المسيحيين ، وممتلكاتهم ، ولم يتعرض مسيحى واحد للمضايقة بسب ديانته ، وهذا فارق جدير بالتنويه بالقياس إلى الفظائع التى ارتكبها الفرنجة (٢) .

" فعلى الناس أن يستشعروا الرابطة الأسرية الكبرى التى بينهم ، فأبوهم آدم وأمهم حواء وبهذه الرابطة ذكر القرآن الناس

---

(١) ت . كويلرنج : الشرق الأدنى ، مجتمعه وثقافته ، ص ١٦٤ ترجمة عبد الرحمن محمد بن أيوب ، دار النشر المتحدة ــ مصر ، سلسلة الألف كتاب .

(٢) أنتونى ناتانج : العرب تاريخ وحضارة ، جـ ٢ ، ص ٢٦ ، دار الهلال ، مصر سنة ١٩٨٠ .

وكثيرًا ما ناداهم " يا بنى آدم " فلم لا يعيشون عيشة الأسرة الواحدة ويرجئون كلمة الفصل بينهم إلى من إليه مصيرهم "[1] .

وبعيداً عن جو الصدامات والحروب : أتاح الله للطاقات البشرية مجالات خير متعددة تستوعب زخمها الطاغى اللحوح ، ولتثبت من خلال تلك المجالات كفاءتها ، وتحقق العمل النافع لكل البشرية الحضارية ، وتميزها بقيم الخير .

﴿ ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعًا إن الله على كل شىء قدير﴾ [2] .

" وتأييد الله فى هذا السياق لا يقر المحاباة إلا بالحق ، فتلك سنة من سنن الله من خلقه لا تبديل لها ولا تحويل " [3] .

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدوننى لايشركون بى شيئًا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ [4] .

---

(١) د. عبد العظيم المطعنى : مبادىء التعايش السلمى فى الإسلام ، ص ١٥١ دار الفتح للإعلام العربى ، مصر سنة ١٩٩٦م .

(٢) البقرة : ١٤٨ .

(٣) عطية فتحى الويشى : مرجع سابق ، ص ٢٧ .

(٤) النور : ٥٥ .

الفصل الثانى

الحوار والواقع المعاصر

المبحث الأول

العلاقات الإنسانية

قد يكون معلومًا لدى العقلاء : أن الصراع لا يصنـــع الأفضـــل لكل الأطراف . وهنا يجب أن نحترم أمانــــة التـــاريخ . وأن نقــرأ الأمور بجدية أكثر . وربما كانت مجموعة القوى الغربية المفضلــــة لهذا الصراع تركض وراء الوهم ، أو تفضل مشاهدة نشوة الغرور .

إن الغرب حين يتصرف كقوى مستبدة . فإنه يقـــول للآخريـــن يجب أن تتصرفوا كمستبدين أقوياء . وهذه مصادرة لمنطق الفضيلـــة والعقل [1] .

وفى سياق الحملة التى يتعرض لها المسلمون . وبالتالى الديـــن الإسلامى . فى جميع أنحاء العالم . تصدر أصوات عدة تتهم الإســـلام بأنه دين التعصب ، والتزمت ، ورفض الحوار مع الآخر ، أو التعايش مع الجماعات المختلفة عنه .

---

(١) سلمان فهد العودة " الإسلام والغرب " جريدة الحياة ، ص ١٠ ، بتاريخ ٢٠٠٢/١/١٨م .

وتعتبر فكرة التسامح بين الأديان والأمم والشعوب المختلفة ، مسألة محورية في التفكير المعاصر في الشرق كما في الغرب .

وتركز أصوات غربية كثيرة على هذا الجانب في حوارها أو سجالها مع الإسلام والمسلمين مطالبة بالكشف عن المفاهيم الإسلامية الحاكمة لمبدأ العلاقة مع الآخر ؛ سواء كان هذا الآخر من دين مختلف أو مذهب مغاير ، أو عرق متمايز ، وما شابه ذلك (1) .

وبداية يحسن أن نعرف : أن الحوار بين البشر ليس مفهومًا جديدًا ولا مبدأ مستحدثًا ، بل هو فكرة ووسيلة لطالما استخدمت في مختلف مراحل التاريخ البشري ، وبدرجات متفاوتة من الوعي والتجسيم . فاتخذ أشكال المعاهدات ، والاتفاقات . وتجسد في مختلف مظاهر التعاون والتواصل بين الشعوب والحضارات .

فتأسست المنظمات الدولية والإقليمية صونًا للسلام ، وتحقيقًا للتعاون ، وبرزت الحاجة في السنوات الأخيرة إلى تكريس الحوار بين الثقافات ، وبين الحضارات ووضع مرتكزاته ، وتصور آليات لقيامه .

---

(1) سمير رزق الله "الإسلام دين التسامح" جريدة الحياة ص ٢١، بتاريخ ١٩٩٦/١٢/١١م.

ولم يكن من العسير على الثقافة العربية الإسلامية . أن تتـــدرج فى هذه الدعوة إلى الحوار ، فهى ثقافة زاخرة بقيم التسامح ، مليئـــة بمبادئ التضامن ، والتعاون [1] .

وقد لا يخفى : أن موضوع الحوار له تعلق كبير بفنون أخـــرى مستقلة كــ (فن الجدل) وفن (البحث والمنـــاظرة) ، وقـــد ذكـــر العلماء آدابًا لتلك الفنون ، مما يستفاد منه فى الحوار ، ويحتاج إلـــى جمع وترتيب من جديد ، كما أنه قد شـــاع فـــى العصـــر الحديث تخصص يتصل بهذا الموضوع وهو فن العلاقات العامة . وأنشـــ لدى الدوائر والمؤسسات أجهزة خاصة بالعلاقات العامة ، المســـئولية الأساسية لهذه الأجهزة هى حسن الاتصال بالآخرين لإقناعهم بـــآراء معينة ، أو تصحيح أفكارهم نحو قضية أو غير ذلك .

وعلى أهمية هذا الفن والتركيز عليه فـــى العصـــر الحديـــث ، وتأليف كتب خاصة به ، يمكن أن يقال : إنه فن قديم ، لكنـــه أخـــذ شكلاً أكثر تحديداً أو تخصيصاً ودقة [2] .

ولذلك فالاهتمام بموضوع الحوار ، يســـاعد فـــى إثـــراء هـــذه العلوم ، وفى إحياء ما اندثر من الآداب التى تمثلها الأنبياء والعلماء ،

---

(١) انظر : المنجى بوسنينة ، جريدة الحياة ص ٩ فى ٢٠٠١/١٢/٢م .

(٢) الندوة العالمية للشباب . فى أصول الحوار ص ، ٥ الرياض .

ومحاولة السير على نهجهم فيها : ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾ (1) .

والله سبحانه وتعالى قد ذكر الجدال بالتى هى أحسن ضمن وسائل الدعوة حيث قال : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾ (2) .

قال ابن كثير : " أى من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب " (3).

وبالنظر إلى تاريخ الدعوة والدعاة من الأنبياء والصحابة والعلماء ومن سار على نهجهم فإن الحوار قد حقق أهداف الدعوة وكانت له آثاره الجيدة .

ومن أهم أهداف الحوار : الوصول إلى الحق ، وترجيح أحد الآراء المطروحة وتضييق هوة الخلاف وتقريب وجهات النظر فإننا نعيش فى عصر كثرت فيه الخلافات مصداقًا لقوله ﷺ [**فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيرًا**] (4) وليست المشكلة فى وجود

---

(1) الأنعام : 90 .

(2) النحل : 125 .

(3) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (2/591) .

(4) رواه أبو داود كتاب السنة (4/200) رقم 4670 ، الترمذى كتاب العلم (5/44) رقم 2676 .

الخلاف ، فإن وجوده أمر طبيعي كما قال عز وجل ﴿ .. **ولا يزالـــون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ..** ﴾ (١) .

ولكن المشكلة في ما يؤدى إليه الخلاف من فرقة ، وتبـــاغض ، وتناحر ، وتضارب عندما يعجز المختلفون عن التفـــاهم بالمحـــاورة أو يغفلون عن ضرورة الالتقاء لتقريب وجهات النظر ، ويقللون مـــن قيمة الحوار ، ويرون ألاَّ فائدة منه أصلاً ، وهو خطأ يقع فيه كثـــير من المختصمين والمختلفين (٢) .

وذلك أن يتصور كل واحد منهم أنه لابد مـــن إقنـــاع الخصـــم بالرأى الذى يتبناه ، أو لابد من ترجيح رأيه وتخطئة رأى محـــاوره ، وإلا فلا جدوى من الحوار ، ولا داعى له ، ولا يتصور أن الحـــوار إذا لم يحسم قضية الخلاف بترجيح رأى معين فإنه يقـــرب وجـــهات النظر ، ويضيق هوة الخلاف ، بل يحدد الخلاف ويحصره فى حـــيز ضيق ، ويساعد فى تقارب القلوب وتفهم الأفكار ، مما يكون له أثـــر فى التماس العذر للطرف الآخر فى حمله لرأيه.

وليس من العجيب أن ينزل " الحوار " منزلـــة الحقيقـــة فكمـــا أن الأصل فى الكلام من جهة مضمونه هو الحقيقة ، فكذلك الأصـــل

---

(١) هود : ١١٨ــ ١١٩ .

(٢) الدكتور يحيى الزمزمى : الحوار : آدابـــه وضوابطـــه ، ص ٤٤ ، ط دار التربيـــة والتراث ، مكة المكرمة ١٤١٤هـــ .

فيه من جهة قائله هو الحوار ؛ كما أنه على المتكلم الشاهد خصوصًا أن يقول الحقيقة ، فكذلك على المتكلم العادى عمومًا أن يمارس الحوار .

وكما أنه على الأول أن يقول الحقيقة وحدها ، فكذلك على الثانى أن يمارس الحوار وحده ؛ وكما أنه على الأول ألاَّ يقول شيئًا غير الحقيقة ، فكذلك على الثانى أن لا يمارس شيئًا غير الحوار .

وبيان هذه الحقيقة الحوارية من الوجوه الثلاثة التالية :

أولها : أن طريق الوصول إلى الحق ليس واحدًا ، وإنما طرقًا شتى لا حد لها .

وحيثما وجد التعدد فىالطرق ، فثمة حاجة إلى قيام حوار بين المتوسلين بها .

والوجه الثانى : أن تواصل الحوار بين الأطراف المختلفة ، فئات أو أفراداً يفضى مع مرور الزمن إلى تقلص شقة الخلاف بينهم ، وذلك لدخول هذه الأطراف فى استفادة بعضها من بعض ، حيث إن هذا الطرف أو ذاك . قد يأخذ فى الانصراف عن رأيه متى تبين له ، عند مقارعة الحجة بالحجة ، ضعف أدلته عليه . ثم يتجه تدريجياً إلى القول برأى من يخالفه ، أو يأخذ - على العكس من ذلك - فى تقوية أدلته . متى تبينت له قوة رأيه مستجلباً مزيداً من الاهتمام به من لدن مخالفه ، حتى ينتهى هذا المخالف إلى قبوله

والتسليم به ، وكذا ؛ فإذا أنزل الخلاف منزلة الداء الذى يفرق ، فـإن الحوار ينزل منزلة الدواء الذى يشفى منه .

والوجه الثالث : أن الحوار يسهم فى توسيع العقل وتعميق مداركه بما لا يوسعه ولا يعمقه النظر الذى لا حوار معه ؛ إذ الحوار هو بمنزلة نظر من جانبين اثنين ؛ وليس النظر من جانب واحد . كالنظر من جانبين اثنين .

فمعلوم أن العقل يتقلب النظر فى الأشياء ، وأنه على قدر تقلبه ، يكون توسعه وتعمقه ؛ والعقل الذى لا يتقلب ليس بعقل حى على الإطلاق ، والعقل الذى يبلغ النهاية فى التقلب ، فذلكم هو العقل الحى الكامل .

وإذ كان الأمر كذلك ، لزم أن يكون تقلب العقل فى حالة النظر من جانبين ضعف تقلبه فى حالة النظر من جانب واحد ، فيكون عقلاً أوسع وأعمق ، وإلا فإن تقلبه أكثر من هذا متى علمنا أن أدلة الجانبين لا يجتمع بعضها إلى بعض فحسب ، بل يزدوج بعضها ببعض .

ومعلوم أن فى الازدواج من الكثرة فى الاجتماع ، بحيث تـزداد سعة العقل وعمقه درجات كثيرة فى حالة الازدواج عنهما فى حالـة الاجتماع [1] .

ولكل هذه الاعتبارات التى تجعل من الحوار : حيـاة العقـل ، ينبغى أن يكون اهتمام الأمة الإسلامية فى انطلاقها .

ولا يخفى : أن الذى يغلق باب الحوار ، أو يخل بأدبه ، يميـت فى نفسه روح العقلانية النافعة ، والعقلانية النافعة هـى تلـك التـى تكون ثمرة الامتحان بواسطة الأدلة من جانبين اثنين علـى الأقـل ، ومن يميت هذه الروح يقطع الأوردة التى تحمل إليه هـذه المعرفـة الممتحنة ، فيحرم نفسه من إمكان تصحيح آرائه ، وتوسيع مداركـه ، فيضيق نطاق عقله ويتسع نطاق هواه .

وحينئذ ، لا يفيد علمه . وإن سولت له نفسه أنه يستفيد بـالأولى لا يفيد غيره ، بل إنه يضر نفسه ويضر غيره ، وليس هذا فحسـب ، بل إنه يميت فى نفسه وفى غيره روح الجماعة الصالحة .

والجماعة الصالحة . هى تلك التى يكون أمرها على هدى مـن الشورى القائمة بين أفرادها ، ولو كانوا لا يزيدون عن اثنين ، ومـن يميت هذه الروح يسد المسالك التى تنقل إليه العمل المشترك ، فيحرم

---

(١) انظر : الدكتور طه عبد الرحمن : حوارات من أجل المستقبل ٤ ، ٥ ط منشـورات جريدة الأمن ، المغرب ١٩٩٩م .

نفسه من تقويم أفعاله ، وتهذيب أخلاقه ، فتقوى دواعى الاستئثار فـى نفسه ، وتضعف دواعى التعاون فيها .

وحينئذ لا يصلحه عمله ، وإن توهم أنه يصلح به ، ولا بـالأولى يصلح غيره . بل يفسده ويفسد غيره .

ولعلنا ندرك أننا ــ فى هذا العصر ــ لا نحتاج إلى شئ . قـدر احتياجنا إلى هاتين الروحين المتكاملين : " **الروح العقلانية النافعـة** " و " **الروح الجماعية الصالحة** " اللتين تورثهما الممارسة الحوارية [١] .

وإذا كان الأمر كذلك . وجب أن نعجل بوضع حوارات متعددة ، وشاملة . توفر لمجتمعنا الإسلامى تكويناً متيناً فى منهجيات الحـوار وأخلاقياته . خاصة أننا لنا فى تراثنا و تاريخنا الكثير مما يفيدنا فـى تأصيل هذه الحوارات ، وتسهيل انتشارها بين الفئات والأفراد .

وللناس مع بعضهم روابط وثيقة ، وصلات متينة ، ومعـاملات لا غنى لهم عنها وليس بميسور لأى إنسان كائناً ما كـان أن يعيـش منعزلاً ، ولو كان شجاعاً هماماً وبطلاً صنديداً ، والطبيعة البشـرية تحتم على الإنسان أن يندمج بالناس ويختلط بهم ، ويسـتعين بـذوى الخبرة منهم ، وأن يسترشد بنصح الناصحين ، وتوجيه النابهين .

ولذا كان من الضرورة الإنسانية فى الإسلام أن لا حياة للأجسـام إلا بالأرواح ، فكذلك الأعمال على اختلاف أنواعـها لا حيـاة لـها

---

(١) المصدر السابق : ص ٦ ، ٧ .

إلا بالثقة المتبادلة التى من ورائها الاطمئنان والنجاح . فبالثقة تنتظم الأمور ، وتنجز الشئون ، وتستقيم الأعمال وتؤدى المصالح على أحسن حال . والثقة لا تتحقق إلا إذا أدى كل إنسان ما عهد إليه وما ألزم به نفسه .

فبالثقة وحدها يسعد الناس ، ويصلون إلى الفوز والفلاح والتعاون المثمر ، وإذا انعدمت الثقة ذهب الاطمئنان ، وأصبح كل إنسان يخاف الآخر ، ولا يطمئن إليه فى أمر من الأمور ، ولن تكون الثقة إلا عن أمانة ووفاء . فليس من الإيمان أن يؤتمن الإنسان على مال فيجحده ، أو على عرض فيهتكه ، أو على سر فيدفعه ، أو على عمل فيهمله ، أو على نصرة صديق فيخذله [١] .

وقد لا يخفى على باحث ودارس ، أن ابتعاث رسول الله ﷺ كان منعطفاً تاريخياً فى حياة الناس جميعاً ، وتحولاً حضارياً متميزاً فى نهج حياتهم وتعاملهم . تحول الخطاب فيه من قومية الأديان ، ومحدودية مقاصدها . إلى عالمية الإسلام وشمولية دعوته وتكامل مقاصده ، ومن عزلة المجتمعات البشرية وتضادها وتصارعها إلى وحدة الأسرة البشرية ، وتعاون مجتمعها . حيث سمع الناس لأول مرة فى تاريخهم الإنسانى فكرة المجتمع الإنسانى الواحد .

---

(١)المصدر السابق ، ص ٤٧ ، ٤٨ .

كما سمعوا أيضاً لأول مرة فكرة التعايش السلمى بينهم من غير تمايز. وكان النبى ﷺ يعمل على نشر الإخاء الإنسانى الذى يتجاوز المسلمين إلى غير المسلمين .

روى الطبرانى ، أن نبىَّ الله ﷺ خطب الناس بمنى فى وسط أيام التشريق وهو على بعير . فقال **[يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربى على عجمى ، ولا عجمى على عربى ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود، إلا بالتقوى، ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم .. قال ليبلغ الشاهد الغائب]** [1] .

والقرآن الكريم .. لا يخاطب العرب فقط ، ولا قومية معينة ، ولا شعباً معيناً بل يخاطب الإنسان بوجه عام .

فالإسلام الحنيف جاء ليقيم بين البشر جميعاً رابطة الإنسانية القائمة على ارتباط البشر بالله الخالق ـــ عز وجل ـــ .

والإسلام لا يهدم شيئاً من الاجتماع الذى استفاده بنو الإنسان ، من أطوار حياتهم الاجتماعية فى الحقب الطوال .. لأن المفهوم من سير الهداية الإلهية ، كما يسردها القرآن الكريم . أن حياة النوع الإنسانى .. تاريخ متصل ، يتم بعضه بعضاً ، وتنتهى إلى التعارف بين الشعوب والقبائل ، فى أخوة عامة ، لا فضل فيها لقوم على

---

(١) التاج الجامع للأصول ، جـ ١ ص ٦١ .

غيرهم إلا بالعمل الصالح ، ولهذا يحرص الإسلام على كيان الاجتماع فى الشخصية الفردية ، وفى الأسرة ، وفى الإيمان بوحدة النوع .

وأنت تجد أن القرآن الكريم يخص من هذا الكون مخلوقاً هو الإنسان فيتحدث عنه مرات كثيرة ، بل يخصه بالمخاطبة ، لأنه هو المقصود ، ولكنه فى الوقت نفسه يشعره بموقفه من هذا الكون .

فالإنسان أولاً : نوع من أنواع أخرى فى هذا الكون ، يشترك معها فى أمور ، ثم يتميز عنها فهو مخلوق من تراب فى الأصل . قال تعالى ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب**﴾ (١) .

والإنسان ثانيًا : نوع من أنواع الحيوانات يدخل فى تصنيفها ويشترك معها فى أمور قال تعالى : ﴿ **والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع**﴾ (٢) .

والإنسان ثالثًا : نوع متميز عن الحيوان كما يبدو فى قوله تعالى : ﴿ **ثم أنشأناه خلقًا آخر** ﴾ (٣). وذلك من جهة خلقه وتكوينه الجسمى .

---

(١) آل عمران : ٥٩ .

(٢) النور : ٤٥ .

(٣) المؤمنون : ١٤ .

وتميزه كذلك من جهة العقل والعلم الناميين بسبب الحواس . كما تشير إلى ذلك الآية : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمــون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**﴾(١) .

والإنسان رابعًا : يتميز بجانب روحى، أشارت إليه آيات كثــيرة كقوله تعالى: ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيــه مــن روحــى فقعــوا لــه ساجدين** ﴾ (٢).

وكلمة الناس استعملت فى القرآن الكريم ، بمعنى الجنس البشرى عمومًا لا بمعنى المسلمين أو العرب. بدليل قوله تعالى فــى الآيــات التالية مما لا يمكن حمله إلا على الناس عمومًا .

﴿ **إن الله لذو فضل على الناس** ﴾ (٣) .

﴿ **يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس** ﴾ (٤) .

﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾ (٥) .

﴿ **زين للناس حب الشهوات** ﴾ (٦) .

---

(١) النحل : ٧٨ .

(٢) الحجر : ٢٩ .

(٣) البقرة : ٢٤٣ .

(٤) البقرة : ١٨٩ .

(٥) آل عمران : ١٤٠ .

(٦) آل عمران : ١٤ .

﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا ﴾ (١) .

فالقرآن الكريم لا يخاطب قومية معينة، وشعباً معينًا. بل يخاطب الإنسان بوجه عام .. ويتحدث عن الأمم **﴿ كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم﴾** (٢)، واستعمل القرآن كذلك كلمة البشر، للدلالة على الجنس الإنسانى الـ احد، وقد استعملت هذه الكلمة، فى أكثر من موضع ، كقوله تعالى: **﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنىخالق بشرًا ﴾** (٣).

والآية القرآنية : **﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا ﴾** (٤). تشير بوضوح إلى أن البشرية تتألف من مجتمعات قبلية وشعوب أو أقوام وكلمة الناس هى تعبير عن الجنس العام الذى يشملهم جميعًا .

وأخيرًا فإن الآية تشير إلى اتجاه تطور البشرية ، أسراً وقبائل وشعوبًا فى اتجاه التعارف وهو المعرفة المتبادلة من جميع الأطراف .. وهو الشرط الأساسى لتحقيق التعاون الذى أوصى به القرآن الكريم فى قوله تعالى : **﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾** (٥) .

---

(١) الأعراف : ١٥٨ .

(٢) الرعد : ٣٠.

(٣) ص : ٧١ .

(٤) الحجرات: ١٣.

(٥) المائدة : ٢ .

إن الإسلام جاء ــ كما يفهم من النصوص القرآنية ــ ليقيم بين البشر جميعاً رابطة الإنسانية ، القائمة على ارتباط البشر جميعاً بالله الخالق ــ جل وعلا ــ فهم جميعاً عباد الله لا ليجعل شعباً معيناً ، شعبه المختار .

والرسول الذى أمر بتبليغ الإسلام .. خوطب فى القرآن الكريم على هذا الأساس ﴿ **قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً** ﴾ [1] .

ولقد قدم القرآن الكريم الدرس المنهجى الموضوعى الأول ، فى مجال العلاقة بالأديان ولقد حفل القرآن الكريم بالحديث المفصل ، المستوعب عن الأديان ، والعقائد ، والملل والنحل ، والمذاهب المختلفة المتنوعة ، وعرض مقالاتهم بدقة ، واستقصاء [2] .

وتجد ذلك واضحًا فى حديث القرآن الكريم ، عن اليهود والنصارى حيث فصل القرآن مقالاتهم ، واعتقاداتهم ، ومذاهبهم ، ولم يعرضها متعجلا فى نص أو نصين وإنما جاء فيها بفيض غزير زاخر ، يتناولها من أقطارها ، ويكشف عن خباياها وأبعادها .

---

(١) الأعراف : ١٥٨ .

(٢) د. محمد عبد الله الشرقاوى ، مقدمة الرد الجميل لإلهية عيسى ، المقدمة ، ص ١٧ ، ط : دار الهداية بمصر ، ١٤٠٦هـ .

وعلى سبيل المثال : فإن الحديث عن بنى إسرائيل ، جاء فى القرآن الكريم ، من أكثر المسائل نصوصًا بعد العقائد .. تحدث القرآن الكريم فى المكى منه والمدنى على سواء ، وفى السبع الطوال ، وما بعدها ، من المثانى والمئين والمفصل وتناولهم بالآية المفردة ، وبالجملة المتصلة من الآيات [١] .

وقد تحدث القرآن عن كثير من الأديان سماوية كانت أو وضعية فكما تحدث عن اليهود ، والمسيح والمسيحية ، تحدث كذلك عن عبدة الأصنام والطاغوت والملائكة . وسماها القرآن أدياناً [٢] .

قال تعالى : ﴿ **لكم دينكم ولى دين** ﴾ [٣] .

وفى مجال اعتراف الإسلام بأصول الأديان يقول الله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد** ﴾ [٤] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٨ ، وراجع : د . عبد الستار فتح الله سعيد ، فى معركة الوجود بين القرآن والتلمود ، ص ٦٩ ، ٧٠ ، ط : القاهرة .

(٢) د . أحمد شلبى ، مقارنة الأديان ، (اليهودية) ، ص ٢٧ ، ط : مكتبة النهضة ١٩٧٨م .

(٣) الكافرون : ٦ .

(٤) الحج : ١٧ .

وقال الله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هـــادوا والنصــارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلــهم آجرهــم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ [١] .

وقال تعالى:﴿ **إن الذيــن آمنــوا والذيــن هــادوا والصــابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلاخوف عليــهم ولا هم يحزنون**﴾[٢].

والإنسان الذى يؤمن برسالة الإسلام لا يستطيع إلا أن يصـــدق النبيين والمرسلين الذين صدقهم الإسلام ودعا إلى الإيمان بهم .

وهذا يشكل حلقة فى وحدة الإيمان التى أكد عليــها الإســلام ، وتبناها فى جانبه العقدى ، وتحدث عنها فى القرآن الكريم .

ووحدة الإيمان هذه حقيقة تفرضها وحدة المصــدر ، بصــورة قاطعة ، لا تقبل الرد ، أو التشكيك ، ولا يغير من واقعها أبداً وجــود **فواصل البعد الزمنى ، بين الأنبياء الذين** أرسلهم الله إلى عباده .

فالإسلام فى جانبه العقدى . أكد أسس الإيمان تأكيداً واضحــاً . ولكنه فى الجانب الــذى يســتتبع الشــريعة ــ أى جــانب الالــتزام والعمل ــ كان الإسلام الفصل الأخير فى تكامل التشريعات .

---

(١) البقرة : ٦٢ .

(٢) المائدة : ٦٩ .

هذا الطابع الشمولي الملتقى فى أسس العقيدة والتكامل التشــريعي. هو الذى جعل من الإسلام : الصيغة الوحيدة الباقية المستمرة .

وإذا أخذنا كلمة " الإسلام " بمعناها القرآنى ، نجدهــا لا تــدع مجالاً لهذا السؤال عن العلاقة ، بين الإسلام وبيــن ســائر الأديــان السماوية. فالإسلام فى لغة القرآن ليس اسماً لدين خاص . وإنما هــو اسم للدين المشترك ، الذى هتف به كل الأنبياء ، وانتسب إليــه كــل أتباع الأنبياء [١] .

فالدين منذ القدم هو الإسلام . وسمى الله منذ القــدم كــل مــن اعتنق أسس هذه الديانة ، ديانة الله ، وسار على مضامينها ســـماه : مسلماً . من إسلام الوجه لله ، والانقياد له ، والتوكل عليه ، وتســليم الأمر لمدبر الأمر ، ومصرف الكون .

من هذا يتضح أن اسم الإسلام ، ليس منصباً على كل من آمــن بدعوة محمد فى عهد محمد أو من بعده فحسب . بــل هــو وصــف ولقب أطلقه الله ، من قبل . على من آمن برسوله الذى بعــث فــى زمنه ، وبكل من وحد ربه ، وأسلم وجهه ، وقلبه ، وأمــره كلــه لله رب العالمين [٢] .

---

(١) انظر : الدكتور محمد دراز ،الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، ص ١٧٥.

(٢) انظر : محمود بن الشريف ، الأديان فى القرآن ، ص ٣١ .

والمسلم فى عرف القرآن ، هو كل من آمن برسوله الذى جاء إليه ، وكل من وحد الله . والمستتبع لآى القرآن الكريم . يجد أن الشريعة ، قامت على توحيد الله . قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فأعبدون** ﴾ [1] .

وكل رسول أو نبى بعث . دعا إلى الله ، وإلى دين الله .. ودين الله واحد ، حقيقته التوحيد ، وجوهره الإيمان بالله دون شريك أو نظير [2].

فكلمة الإسلام فى إطار اللفظ تعنى فى الأصل : التسليم والخضوع . وفى مفهوم الدين ، ومن خلال إطلاقها فيه ، يراد منها : التسليم والخضوع لله سبحانه وتعالى وحده لا شريك له .

وبهذا المعنى البسيط من التسليم والخضوع لأمر الله ، ومشيئته . أطلقت على كل من آمن بالله ، وسلم الأمر لله ، عن أى طريق ، وباتباع أى رسول ونبى . فأتباع كل الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى ، وكل من يدين لله بأى دين من الأديان السماوية . هم مسلمون بهذا المعنى ، ويصح إطلاق الإسلام عليهم .

---

(١) الأنبياء : ٢٥ .

(٢) راجع : الدكتور محمود بن الشريف ، الأديان فى القرآن الكريم ، ص ٣١ .

وفى آيات القرآن الكريم كثير من الآيات التى تشير إلى ذلــك . إذ أن القرآن الكريم اعتبر كل من آمن بالله تعالى ، والــتزم بطاعــة أنبيائه مسلماً [1] .

إذن : لم يكن الإسلام ، مقتصراً علــى فئــة ، دون فئــة مــن المؤمنين ، فكل مسلم بحكم إيمانه وتسليمه لأمــــر الله ، وخضوعــه لمشيئته . هو من المؤمنين بالإسلام . وفى هـــذا الإطــار ، يتســع الإسلام ليشمل كل من وضع قدمه ، وسار فى مسيرة الإيمان [2] .

وفى الجملة : نرى اسم الإسلام شعاراً عاماً يدور فى القــــرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم . منذ أقدم العصــور التاريخيــة ، إلــى عصر النبوة المحمدية .

إذن رسالة الإسلام هى الإسلام ، بعد أن كوَّن فى واقعه وحــدة الإيمان وجاء بالشريعة الدائمة الصالحة لكل زمان ومكان . قــال الله تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكــم الإسلام ديناً** ﴾ [3] .

ومن هنا كان الإسلام يشتمل على :

---

(١) راجع : الدكتور أحمد السايح ، فلسفة الحضارة الإسلامية ، ص ٢٥ .

(٢) راجع : الدكتور أحمد السايح ، فلسفة الحضارة الإسلامية ، ص ٢٧ .

(٣) المائدة : ٣ .

١ـ امتداد زمانى فى المعتقد الدينى ، يعرض لقضية البشـــرية مـــن نشأتها إلى غايتها فى إيجاز وإجمال .

٢ـ شمول موضوعى يغطى مجالات الحيـــاة جميعـــاً : سياســـية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وعقدية ، وتربوية ، وفكريـــة ، وأحـــداث تاريخية .

٣ـ شمول يضم الأديان كلها . والمسلم مطـــالب بتصديـــق الأنبيـــاء جميعاً [1] .

لقد دعا الإسلام المجتمع الإسلامى إلى أن يكون متســـامحاً مـــع نفسه ومع الآخرين ومتعايشاً معهم . ولـــــه فـــى هـــذه الإرادة دواع وأسباب كثيرة يمكن إجمالها فى دوافع ثلاثة هى :

أولاً : أن الإسلام فى أساسه لا يرضى بالتعصب كيفما كـــــان ، جنسًا أو دينًا ، لقيام هذا التعصب على الهوى ، وحب الذات وحدها ، ورفض ما سواها وإلغاء الآخر .

ثانياً : أنه يدعو إلى التعارف ، أى إلى التجمـــع ، والتســـاكن ، وتبادل المنافع ، والمصالح . وإلى التعايش ، فى أخذ وعطاء ، وفـــى تأثر وتأثير دائمين ، بعيداً عن أيـــة عصبيـــة جنســـية أو عنصريـــة إقليمية أو نعرة ثقافية. وهو بذلك لا يرى فضلا لأحد علـــــى الآخـــر إلا بالتقوى. يقول عز وجل : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم مـــن ذكـــر**

---

(١) الدكتور أحمد السايح ، فلسفة الحضارة الإسلامية : ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .

وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ [1] . والتقوى تعنى طلب الوقاية التى هى الصيانة من كل ما قد يصيب الإنسان من ضرر ومكروه . والحفظ منها والحصانة والمناعة .

والتعارف يقتضى القدرة عليه ، وأكثر ما تتمثل فيه القدرة هو قبول الاختلاف فى الرأى ، والمخالفة فى العقيدة .

ثالثاً : أنه ينطلق من أن الاختلاف كامن فى طبيعة الحياة، وجبلة الخلق ، إذ أن الله تعالى خلق الكون وما فيه ومن فيه . على أساس من الاختلاف البارز فى التنوع والتعدد ، مما يتجلى فى مختلف الظواهر والمظاهر .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب﴾** [2]، ويقول: ﴿ **ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين** ﴾ [3] .

ويؤكد عز وجل هذه الحقيقة التى لا تبديل فيها فيقول : ﴿ **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من**

---

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) آل عمران : ١٩٠ .

(٣) الروم : ٢٢ .

رحم ربك **ولذلك خلقهم** ﴾ [1] . أى أن سنة الله فى الأرض تقوم علــى تباين البشر . سواء أكان هذا التباين يتعلق بالجنس أم اللغة أم الدين ، أم بأى مكون من مكونات الحضارة والثقافة [2] . فالإسلام لا يقــاطع الآخر مقاطعة شاملة ، ولا يحرم أصل التعامل مع غــير المســلمين لتحقيق مصالح المجتمع الإسلامى من خلال تلك العلاقات .

وإن دعوة الإسلام تنطلق من نظرة شاملة للإنسان . وأن هــذه النظرة تبقى أساسية وصالحة للبشر فى كل زمان ومكان .

وثمة أمور يحسن أن نؤكد عليها وهى :

(١) أن العصر الحاضر الذى نحن فيه هو عصر التواصل البشرى ، وعصر **التحاور الثقافى** ، ويمكن القول : أنه **عصر التدافع الثقــافى** ، وهذا توجه مهم ومفيد يلزم المسلمين استقباله والتعامل معه بإيجابيــة وارتياح لأن منهجية الحوار بالبيان والحكمة ، منطلق أساســى فــى منهج القرآن الكريم وأدبيات الدعوة إلــى قيــم الإســلام ، التزامًــا بالتوجيه الربانى جل شــأنه : ﴿ **ادع إلــى ســبيل ربــك بالحكمــة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾ [3] .

---

(١) هود : ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) انظر : الدكتور عباس الجرارى ، مجلة الإسلام اليوم ، العدد رقــم ١٤ ، ص ٢١ ، ٢٣ ، بتصرف المغرب .

(٣) النحل : ١٢٥ .

(٢) المسلمون مطالبون بالسعى للحوار مع الناس بما يحقق وضـوح الرؤية ، ويجمع الكلمة على المبادئ والقيم الربانية الخالدة . وهذا فى قوله تعالى : ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله** ﴾ [١] .

ولعلنا ندرك : أن هذه الآية الكريمة جاءت لتقرر مبادئ جاءت فى علاقات المسلمين بغيرهم :

ـ مبدأ الاعتراف بالآخرين .

ـ مبدأ الحوار وأهميته .

ـ مبدأ استشراف المستقبل فى ظل علاقات إنسانية سامية [٢] .

وإذا كانت الحضارة تمثل كل مظهر من مظاهر الإنتاج البشرى وغالبا ما يحدوها سلوك الإنسان وطرق معيشته وتفاعله مع البيئة . فإنه من الطبيعى أن تختلف كل حضارة فى مظاهرها عن الحضارات الأخرى فلكل حضارة من الحضارات – قديمها وحديثها– مظاهر مميزة .

---

(١) آل عمران : ٦٤ .

(٢) انظر الدكتور عباس الجرارى ، مجلة الإسلام اليوم ، العدد (١٤) ، ص ٢١ ، ٢٣ . بتصرف المغرب .

والعقل البشرى استطاع بما اكتسب من خبرة ، ودربة ، ومرانة أن يصنف المعارف الإنسانية ، وأن يحكم ما بينها من وشـــائج ، وأن يستفيد بما بينها من صلات وروابط ، والنتائج العلمية متصل بعضـــها ببعض ، ويعتمد بعضها على بعض ، والحضارات الإنسانية ليســـت ملكاً لأمة بعينها . ولا هى وقف على جماعة من الناس لأنها صـــرح هائل قد أسهمت فيه كل أمة بنصيب .

والحضارات الإنسانية قـــد تتشـــابه فـــى مظاهرهـــا ، وفـــى عناصرها ، وفى أسلوبها ــ ولا سيما ــ إذا تعايشـــت فـــى جـــهات متقاربة ، والحضارات الإنسانية سلسلة محكمة متينة الحلقات يؤثـــر سابقها فى لاحقها ، ويتأثر حاضرها بماضيها ؛ وينتفع بعضها مـــن بعض [1] .

ولقد تواجدت حضارات مختلفة فى الزمان والمكان ، وانتفعـــت من بعضها انتفاعًا أدى إلى تقدمها ورقيها .

وتشكل الحضارة مجمـــوع الصفـــات ، والمزايـــا المشـــتركة لمجتمع ، أو لمجموعة من المجتمعات وهى تتجاوز الثقافة ، وهـــذه الصفات تمثل مجموع الحلول التى أو[illegible] مجتمع أو تبنتها مجموعـة

---

(١) انظر : الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور ، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ، ص ٢ ، ط : دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٩م .

اجتماعية ما ، تندمج بشكل عام ، فى جـــو واســـع جـــدًا ، ومكـــان جغرافى طويل جدًا من التاريخ .

وتستخدم هذه الأساليب المادية ، والتقنية ، والمفاهيم لحل جميـــع المشاكل التى يطرحها وجود هذه المجموعة : الاتصالات، وإصــــلاح وتوزيع الأراضى ، واستثمار الثروات ، وكذلك الحياة الاقتصاديـــة ، والفكرية ، والسياسية ، والدينية .

وكل المجموعات البشرية تعمـــر صدورهـــا الرغبـــة بالحيـــاة والخلود . وهذا العامل عنصر غير مادى ، وهـــو ضـــرورى لكـــل حضارة لكى تولد ، وتحيا ، وتتطـــور وجميـــع العنـــاصر المكونـــة للحضارة متفاعلة فيما بينها باستمرار ، وتتطور بوتائر متفاوتة بيـــن السرعة والبطء .

وإن أول ما يسترعى انتباه المراقب الذى ينظر للحضارة مـــن الخارج هو صفاتها الجمالية وإدراكها للجمال بشكل عام، والأســـاليب الفنية المعبرة عنه . ولا يخفى أن الحوار الحضارى يتم مـــن أجـــل الصفات الجمالية فى الحضارة .

وتعتبر المنشآت المادية ، والأدوات والكتابـــات . ذات أهميـــة خاصة بالنسبة لمفاهيم الجمال فى كل حضارة . ويـــأتى بعـــد علـــم الجمال كل ما له علاقة بالحياة المادية كفن الطبخ ، وطريقة التغذية ، وصناعة الفخار والأوانـــى ، والأدوات المنزليـــة ، والمفروشـــات ،

والمنشآت والأدوات ، والآلات ، والأسلحة . حيث يتم الجمـــع بيـــن الفائدة المباشرة ، والصفة الجمالية [1] .

والفاحص المدقق يجد أن : تيار الفكر الحضارى الإنســـانى ، يتخذ طابعاً واحداً . لا ينحو كثيراً عـــن تـــاريخ الإنســـان نفســـه . فالحضارات والثقافات المختلفة ، تتفاعل مع بعضها فتنتـــج للإنســـان ما يشبع حاجته الفكرية والمادية .. وبذا فإن الحضـــارات الإنســـانية على مر العصور ، تكون كلا متماسكاً . يترابط بنيانـــه العضـــوى . كحلقات السلسلة الواحدة ، التى لا تفصم الواحدة منها عن الأخرى .

ولا يمكن أن تكون كل حضارة نشأت بمعزل عن غيرها مـــن الحضارات الأخرى . أو أنها لم تتفاعل معها . ونظرتنـــا الأساســـية تقوم على أن الحضارات تأخذ وتعطى . تأخذ ما يتفق مـــع طبيعـــة البنيان العقلى والفكرى للأمة. وتعطى ما تجود به نوعيتها ونشـــاطها الفعال . وبطبيعة الحال . فإن هذا التفسير أقـــرب إلـــى فـــهم روح الفكر ، والنشاط الإنسانى المتصل الذى بدأ تاريخه ومسيرته مع بداية الإنسان على هذه الأرض [2] .

---

(١) انظر الدكتور أحمد السايح . أضواء على الحضارة الإسلامية ، ص ١٨ .

(٢) الدكتور ماهر عبد القادر محمد ، المشكاة ، ص ١٦٦ ، ط : دار المعرفة الجامعيـــة ، ١٩٨٥ م .

ولا يخفى أن النشاط العقلى ، والإنتاج الحضارى . لابـــد وأن يستند إلى أدلة ملموسة ، والأدلة فى هذه الحالة إما مادية مثل النقوش والمعابد والآثار والمنشآت . وكل شكل الإنتاج التكنولوجـــى . وإمـــا فكرية مثل الوثائق ، والمؤلفات ، والكتب ، والنظريـــات العلميـــة ، والآراء المدونة كتابة .

أما فيما يتصل بالأدلة المادية . فإنها ميـــدان اهتمـــام التـــاريخ وباحثيه، وعلماء الآثار ، ودارسيها . فدراسة هؤلاء تفسر الحضـــارة الإنسانية بالأدلة المادية التى تميز حضارة مـــن الحضـــارات عـــن غيرها.

على أن الفلاسفة ومؤرخى العلـــم يـــهتمون بصـــورة أساســـية بالنشاط الفكرى ، والنظريـــات والآراء ، وتطـــور الأفكـــار التـــى يقومون على تحليلها ونقدها ثم محاولة تفسيرها من خـــلال عمليـــة التركيب المنطقى للوقوف على الفلسفة الكامنة فـــى بـــاطن الفكـــرة نفسها .

ومما ينبغى أن ندركه : أن الإسلام ينظر إلى الإنسان على أنـــه خليفة فى الأرض قال تعالى : ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة**﴾ [1] .

---

(١) البقرة : ٣٠ .

وقد فضل الله الإنسان وكرمه ، كما وضح ذلك فى قوله : ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ (١) .

وهذه الكرامة التى اختص الله بها الإنسان ذات أبعاد مختلفة فهى حماية إلهية للإنسان تنطوى على احترام حريته، وعقله، وفكره ، وإرادته .

وهذه الكرامة تعنى فى النهاية الحرية الحقيقية وهى تلك الحرية الواعية المسئولة التى تدرك أهمية تحملها أمانة التكليف والمسئولية التى أشار إليها القرآن فى قوله تعالى : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان** ﴾ (٢) .

وإذا كان الله قد اختص الإنسان بالتكريم ، وجعله مكلفًا ومسئولا ، فإنه من ناحية أخرى قد خلق الله له هذا الكون بما فيه ليمارس فيه نشاطاته المادية والروحية على السواء .

يقول الله تعالى : ﴿ **وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعًا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ (٣) .

---

(١) الإسراء : ٧٠ .

(٢) الأحزاب : ٧٢ .

(٣) الجاثية : ١٣ .

والتفكير الذى تنص عليه الآية هنا أمر جوهرى لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان [1] .

وإذا كان الله قد سخر للإنسان هذا الكون فلا يجوز له أن يقف منه موقفًا لا مبالاة فيه بل ينبغى عليه أن يتخذ لنفسه منه موقفا إيجابيا ، وإيجابيته تتمثل فى درسه ، والنظر فيه للاستفادة منه بما يعود على البشرية بالخير .

والاستفادة من كل هذه المسخرات فى هذا الكون ، لا تكون إلا بالعلم ، والدراسة ، والفهم .

والنظر فى ملكوت السماوات والأرض ، على هذا النحو سيؤدى إلى الرقى المادى وفى الوقت نفسه إلى الرقى الروحى والحضارى [2] .

والحضارة الإسلامية هى عمارة الأرض ، وترقية الحياة على ظهرها "إنسانياً " وخلقيًا ، وعلميًا ، وأدبيًا ، وفنيًا ، واجتماعيًا وفق منهج الله وشريعته " .

وبناءً على هذا المفهوم فإن المجتمع المتحضر هو الذى تكون القيم الإنسانية ، والأخلاق الإنسانية التى يقوم عليها هى السائدة فيه

---

(١) الدكتور محمود حمدى زقزوق ، دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى ، ص ٩ ، ط : مكتبة وهبة بالقاهرة .

(٢) المصدر السابق .

وهذه القيم هى التى تنمى خصائص إنسانية الإنسان ، وهـــى التـــى تميزه عن غيره من المخلوقات [1] .

وهذه القيم إنما هى قيم إنسانية ذات ميزات ثابتة وهى مقـــررة فى الشريعة الإسلامية منذ جاءت وما على الإنسان إلا أن يمضى فى بنائها وصيانتها فى كل المجتمعات التى يقيمها حضريـــة كـــانت أم بدوية صناعية كانت أم زراعية .

فالمهم فى كل الأحوال هو الارتقاء صعداً بالخصائص الإنسانية وحراستها من النكسة إلى الحيوانية التى تؤدى إلى التخلف .

إن الحضارة الإسلامية تقوم بهذه القيم ، وبهذه الأخلاق فى كـل مكان ، وفى كل بيئة أما أشكالها وصورها الماديـــة . فـــهى كثـــيرة ومتنوعة لأنها فى كل بيئة تستخدم المقدرات والمعطيات الموجـــودة بها فعلاً ، وتنميتها وفقًا لميزان الله الثابت ، وقيم الإنسان المقررة فى شريعة الله [2] .

فالإسلام حين يدخل المجتمعـــات البدائيـــة ينشـــىء الحضـــارة المناسبة لهذا المجتمع وحين يدخل المجتمعـــات المتقدمـــة صناعيًـــا

---

(1) الدكتور على أحمد مدكور ، الثقافة والحضارة فى التصور الإسلامى ، مجلة الـــدارة ع ٤ ص ٥٢ السنة ١٤ السعودية ١٤٠٩هـ .

(2) سيد قطب ، معالم فى الطريق ، ص ١٣١ ، ١٣٣ .

أو زراعياً أو غير ذلك فإنه يستخدم كل ما لديها من معطيات ويقيم حضارة لهذه المجتمعات مستفيدًا مما لديها .

وإذا كان هذا هو مفهوم الحضارة الإسلامية فإن التخلف الحقيقى فى مفهوم المجتمع الإسلامى المتحضر – هو تحويل منجزات العلم الهائلة إلى قوى باغية للتدمير والتسلط ، وتسخير إمكانيات العلم غير المحدودة فى نشر الفوضى والعادات غير الخلقية ، بدلا من استخدامها فى إعلاء القيم الإنسانية ، وفى خدمة الإنسان دون بغى أو ظلم أو تحكم أو إبادة .

إن مهمة العلم فى مفهوم المجتمع الإسلامى المتحضر ليست قهر الطبيعة أو الانتصار عليها بل التلطف مع الطبيعة ، والجد فى اكتشاف قوانين الله فيها [١] .

وإذا كان هذا عمل الإسلام حينما ينشىء حضارة فإن هذه الحضارة التى دعا إليها الإسلام ، تتميز بأنها منفتحة الحدود الفكرية والنفسية والمادية .

والنصوص الإسلامية التى تعلن هذه الحقائق كثيرة منها .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : **[ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقًا إلى الجنة]** [٢] .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٣١ .

(٢) رواه مسلم .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : ﴿ **إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع بـــه ، أو ولد صالح يدعو له** ﴾ [1] .

وعن ابن مسعود قال . قال رسول الله ﷺ : [**لا حســد إلا فــى اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق ؛ ورجل آتـــاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها**] [2] .

وقال رسول ﷺ [**الحكمة : الإصابة فى غير النبوة**] [3] .

وقال ﷺ: [**الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها**] [4].

ويقول ابن رشد : (**إن ألفينا لمن تقدمنا من الأمم السالفة نظراً فى الموجودات واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهـــان . أن ننظر فى الذى قالوه من ذلك ، وما أثبتــوه فــى كتبـــهم . فمـــا كان منها موافقاً للحق قبلناه منهم وسررنا به ، وشـــكرناهم عليـــه وما كان منها غير موافق للحـــق نبـــهنا عليـــه، وحذرنـــا منـــه، وعذرناهم**)[5].

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه. كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان بعد فاته رقم٤١٩٩ .

(٢) رواه البخارى . كتاب العلم . باب الاعتبار بالعلم والحكمة . حديــث رقــم (٧٣) . ورواه مسلم . كتاب صلاة المسافرين . باب فضل من يقوم بالقرآن رقم ١٨٩٣ .

(٣) رواه البخارى .

(٤) رواه الترمذى وابن ماجة .

(٥) ابن رشد ، فلسفة ابن رشد ، فصل المقال ، ص ١٧ ، ط : دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٤٠٢ هـــ ـــ ١٩٨٢ م .

وسيرًا فى ضوء هذا المنهج الإسلامى وجدنا العصور الذهبية للمسلمين تفتح صدورها للاستفادة من الحضارات التى خلفتها فى الأمم والشعوب من حضارات سالفة [1] .

واللقاء الحضارى الإسلامى . مع حضارات الأمم المختلفة ، تم بناء على : أن العالم هو أقرب ما يكون إلى " منتدى " عالمى لحضارات متميزة ، تشترك أممها فى عضوية هذا المنتدى . ومن ثم فإن بينها ما هو " مشترك حضارى عام " .

وأيضًا فإن هذه الأمم تتمايز حضاريًا ؛ الأمر الذى يستدعى الحفاظ على الهويات الحضارية المتميزة [2]. لا لمجرد الحفاظ عليها، رغم أهميته ، إنما لأسباب وطنية وعقدية تلعب دورها فى إنهاض أمم كثيرة من كبوتها وتراجعها لما لهذه الخصوصيات من قدرات على شحن شعوب هذه الأمم بالكبرياء المشروع والطاقات المحركة فى معركة الإبداع ، ولما للتعددية الحضارية من دور فى إثراء مصادر العطاء العالمى [3] .

---

(١) عبد الرحمن حسن حنبكه الميدانى ، أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها ، ص١٢٢، ط : دار القلم ، دمشق ١٤٠٠ هـ .

(٢) الدكتور محمد عمارة ، الغزو الفكرى وهم أم حقيقة ، ص ٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧ .

والذين يعايشون حياة الشعوب والأمم ذات الحضارات الغنيـــة ، والتاريخ القديم والتراث العريق ، أو يغوصون فى تراث هذه الأمـــم وفلسفتها : مذاهبها ، وتقاليدهـــا ، وأعرافـــها يدركـــون أن العـــالم الإنسانى به أمم متعددة تتمـــيز كـــل منـــها بشـــخصيتها القوميـــة ، والحضارية .

وإننا إذا نظرنا فى مذاهب هذه الأمم وأعرافها ، وفـــى معـــايير الحلال والحرام والمشروع والممنوع لدى أبنائـــها ، وفـــى موازيـــن الأذواق والحاسة الجمالية ، وفى تصوراتها لمكـــان الإنســـان مـــن الكون ، وتصوراتها لمصيره بعد الموت ، وتصوراتها الفلسفية لـــهذا الكون ، وما وراء المادة والطبيعة إذا نحن نظرنا إلى مذاهـــب هـــذه الأمم فى هذه القضايا الأمهات أدركنا السمات التى تمايز بينها جنبًـــا إلى جنب مع سمات تشترك فيها فتجمع بينها [١] .

ولا يخفى : أن الباحث الذى يسبر أغوار المواريث الفكرية لـــهذه الأمم ، ويتتبع خيوط هذا التمايز الحضـــارى يجـــد أنـــها تضـــرب بجذورها فى أعمق أعماق التاريخ حيث كان البابليون ، والأشـــوريون والفينيقيون والمصريون وغيرهم ممن أسهموا فى الفكـــر الإنســـانى وكان لهم تمايز حضارى [٢] .

---

(١) انظر :الدكتور محمد عمارة ، الغزو الفكرى وهم أم حقيقة ، ص ٨ ، ٩ .

(٢) راجع : الدكتور أحمد السايح ، أضواء على الحضارة الإسـلامية، ص ٧٨ ، ط : دار اللواء بالرياض ١٤٠١هـ -١٩٨١م .

ولعل نظرة فاحصة إلى أمم مثل الفرس ، والصين والهند واليابان ستفضي بالباحثين إلى الاجتماع على حقيقة تميز الشخصيات القومية ، والمواريث الحضارية ، وطرائق العيش، والفلسفة والحياة ، وفى النظر للكون وتصوره لدى شعوب وأمم هذه الحضارات .

وكذلك الحال إذا نحن تأملنا الحضارة الغربية ، منذ اليونان ، وحتى نهضتها الحديثة والحضارة الإسلامية منذ تبلورها كثمرة لاندماج المواريث القديمة للشعوب التى دخلت الإسلام – بعد الإحياء لهذه المواريث – كثمرة لاندماج هذه المواريث فى الفكر الإسلامى ، الذى استصفاها وطورها وفقًا لمعاييره [1] .

حيث لم يكن المسلمون مجرد نقلة ، ولكن إضافتهم للأصول التى نقلوا عنها تشهد بأنهم زادوا ، وابتكروا لأنهم كانوا ينظرون بعين إلى الحضارات التى أخذوا عنها ، وبالعين الأخرى إلى التعاليم الإسلامية [2] .

إذن : لابد من التصور الذى يقوم ، على أن الفكر إذا نظرنا إليه ، على المستوى العالمى الإنسانى وجدنا فى هذا الفكر (ما هو

---

(١) انظر : الدكتور محمد عمارة : الغزو الفكرى وهم أم حقيقة ، ص ٩ بتصرف .

(٢) انظر : الدكتور توفيق الطويل ، الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية ، ص ١٥١ ، ط : مكتبة التراث الإسلامى ، مصر ١٩٩٠ .

مشترك إنسانى عام) لا يختص بحضارة بذاتها وفـــى هــذا الفكــر أيضًا ما يتميز بالخصوصية والاختصاص .

والتمييز فى الفكر بين ما هو مشترك إنسانى ، وبين مــــا هــو خصوصية حضارية إنما تحكمه وتحدده معايير موضوعية .

فكل العلوم التى تكون الطبيعة موضوعها وظواهرها ، والمـــادة وخصائصها ، هى من قبيل الفكر الذى هو مشترك إنســـانى عــام ؛ وذلك لأن مناهجها تتميز بالحياد العلمى ، ولأن التجربـــة الملموســة بالحواس المادية ، هى السبيل لاكتشاف حقائق هــذه العلــوم ، تلــك الحقائق التى هى بنت الدليل ، والتى لا تختلف بـــاختلاف مذاهــب ، وعقائد ، وأجناس وفلسفات المكتشفين ؛ ومن ثم فهى لا تتغير بتغــير القوميات ، والحضارات ، بل هى واحدة على المستوى الإنسانى .

كما أن موضوعاتها -المادة وظواهرها - واحدة هى الأخـــرى لا تختلف ولا تتغاير باختلاف وتغاير الحضـــارات ؛ فعلــوم مثــل الرياضيـــات بفروعـــها وعلــوم الكيميـــاء ، والطبيعـــة ، والطـــب والجيولوجيا لم ولن تختلف مناهجها ، وحقائقها ، وقوانينها بـــاختلاف الحضارات . قد تتمايز وظائف اســـتخدام قوانينـــها ، ونظرياتـــها ، ومكتشفاتها ، لكن حقائق علومها أى (فكرها العلمى) سيظل واحدًا ، مهما اختلفت المذاهب ، والعقائد ، والحضارات [1] .

---

(١) انظر الدكتور محمد عمارة ، الغزو الفكرى وهم أم حقيقة ، ص ١٦ .

ويلحق بهذه المنظومة من حقائق العلوم الطبيعية الخاصة بدراسة المادة وظواهرها وأسرارها على نحو ما وإلى حد كبير العديد من ثمرات التجارب الإنسانية فى الوسائل ، والنظم ، والمؤسسات ، والخبرات التى تُرَشِّد أداء الإنسان وهو يسعى إلى تحقيق المقاصد والغايات .

فعلى الرغم من تمايز المقاصد والغايات والمثل فإن تجارب الإنسانية فى الوسائل ، والنظم والمؤسسات قد تكون صالحة فى أحيان كثيرة للاقتباس — مع التطوع — والتمثل ، والاستلهام .

إن العناصر الخارجية ضرورة حتمية ، لا تستغنى عنها أى حضارة مهما سمت وارتقت . إنها تمتزج لتكون وإياها صيغة جوهرية تختلف من تراث إلى آخر . وهذه العناصر الخارجية تأتى بطريق الاقتباس الإرادى المباشر المقصود .

والاقتباس والنقل ، عملة متداولة بين الشعوب قاطبة فكل حضارة أبدعت ، ونقلت ، وأخذت ، وأعطت ولم توجد قط حضارة أبدعت ولم تنقل ؛ فالنقل ليس وباء ، وإنما هو غذاء والاستعارة ليست عاراً وإنما هى فخار .

فالتأثيرات الحضارية والاستعارات الثقافيـــة والأفكـــار والآراء والنظريات المتبادلة بين الأمم والشعوب إنما هـــى ظـــاهرة صحيـــة طبيعية سليمة ، لا خطر فيها ولا خوف منها [1] .

والعرب هم وارثو الحضارات القديمة ، إذ لم يكونوا قبل الإسلام معزولين عن جيرانهم أصحاب الثقافات العريقة عزلة كاملـــة ؛ فقـــد انفردت الصحراء العربية بين صحارى العالم أجمع بأنها أحيطت منذ القدم بأرقى حضارات العالم .

ففى الشمال ازدهرت حضارة ما بيـــن النـــهرين وحضـــارات الإغريق ، والكنعانيين والآراميين ، وجزر بحر إيجة .

وفى الغرب ازدهرت حضارة المصريين القدماء ، وفى الشـــرق كانت الحضارة الفارسية ، ومن ورائها الحضارات الأسيوية الأخـرى وفى الجنوب كانت حضارة اليمن .

وكانت القوافل العربية دائبة الحركة بين مراكز هذه الحضـــارات عند أطراف الصحراء تنقل البضائع والسلع .

وكان لابد أن تتحرك المعارف والثقافات مع السلع والبضـــائع ، وأن تختلط هذه الثقافات وتتزاوج فى حركة بطيئـــة ولكنـــها ثابتـــة

---

(١) انظر : الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا ، أصالة الفكر العربـــى ، ص ١٥٢ ، ط : منشورات عويدات ١٩٨٢م ، بيروت .

مستمرة وأن يؤدى كل ذلك إلى تصفية الأفكار والمعـــارف وتقدمـــها تبعًا لهذا الاختلاط والتزاوج [1] .

فى هذا الجو جاء الإسلام .. إنه لم ينتشر من فراغ ؛ فالأمم التى صادفها أو اتصل بها ، فى حركة المد الكبيرة ، أو تلك التى اعتنقتـــه ودانت به أمم عرفت حضارات شتى ، وثقافات متنوعـــة ، ومـــرت بتجارب روحية ، وخبرات مادية متعددة .

وكان اختلاط العرب بهذه الأمم اختلاط قتال وحروب ومعـــارك أولاً ثم اختلاط حضارة وثقافة وأفكار بعد ذلك ، ومن هنا كان التأثير والتأثر ، ومن هنا كان التفاعل والإخصاب ، وكان الأخذ والعطـــاء ، وتبادل الأفكار والآراء .

وبذلك فقد عرف العرب حضارة الهند ، وحكمة فارس ، وفلسفة اليونان ، واختلط المسلمون بأقوام تنوعت عقائدهم ، وتشعبت آراؤهم وصادفوا مئات المفكرين والباحثين والمثقفين ، واتصلوا بأصناف من الأفراد والجماعات لا تدخل تحت حصر وشاع التزاوج والإصـــهار ، وتفاعلت العادات والتقاليد والآراء والأفكار ، والمذاهب ، والمواقـف، والعلاقات .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

وجاءت وحدة الدين لتعطى هذا التفاعل صبغة فريدة ، ونتج عن ذلك كله مزاج فكرى واجتماعى وروحى جديد أعطى الحضارة الإسلامية معناها ومبناها [1] .

---

(١) المصدر السابق .

المبحث الثانى

التفاعل الحضارى

كلما ذهبنا نبحث فى حضارات الأمم وجدنا : أن اللقاء والتفاعل الحضارى الذى عرفه التاريخ بين الحضارات العريقة المالكة لما هوى (مشترك) ولما هو (خاص) قد تم وفق أن هناك ما هو مشترك إنسانى عام وهناك ما هو خاص .

فالتقاء الحضارات ـــ وهو معلم من معالم التاريخ الحضارى للإنسانية ـــ وتفاعل هذه الحضارات عندما تلتقى . هو قدر لا سبيل إلى مغالبته أو تجنبه لكنه تم دائمًا وأبدًا ، وفق هذا القانون الحاكم ، التمييز بين ما هو مشترك إنسانى عام ، تفتح له الأبواب والنوافذ ، بل ويطلبه العقلاء ويجدون السعى فى تحصيله وبين ما هو خصوصية حضارية يدققون فى حذر قبل استلهامه وتمثله ويعرضونه على معايير حضارتهم ، لفرز ما يقبل منه ، ويتمثل من ذلك الذى يرفضونه لما فيه من تناقض مع هويتهم الحضارية وقيمهم الاعتقادية [١].

---

(١) انظر : الدكتور محمد عمارة . الغزو الفكرى ص ٢٠٥ ، بتصرف .

ويستطيع الباحث فى الحضارات أن يضرب مثالين على تفاعل الحضارات والتقائها فى أخذ وعطاء وفق (ما هو إنسانى) وما هو خصوصية حضارية .

المثال الأول : لقاء الحضارة الإسلامية بالحضارة الفارسية ، والهندية ، واليونانية .

المثال الثانى : لقاء الحضارة الغربية إبان نهضة الحضارة الإسلامية .

أما المثال الأول الذى يقوم على لقاء الحضارة الإسلامية وتفاعلها مع الحضارة الفارسية ، واليونانية ، والهندية ، فإن المدرك لأبعاد هذا اللقاء والتفاعل يلحظ بوضوح أن المسلمين لم يكونوا يومئذ **أخلاء** من أى تفتح عقلى ، إذ كانت نواة التفكير فيهم قد تكونت كما كانت بين أيديهم نظرية كونية شاملة أمدهم بها القرآن فكانت بمثابة العمود الفقرى لكل تفكير عقلى ، وتحرك عِلَمى وعملى .

ولهذا أقبل المسلمون على حضارات الأمم يمتصون بسرعة فائقة ما خلفه الفرس من حكم وآداب وخبرات سياسية ، وما خلفه اليونان الإغريق من علوم فلسفية ، عقلية ، وما كان لدى مختلف الأمم التى التقت مع المسلمين ، لقاء مودة ، أو لقاء خصام .

لقد قام المسلمون بتحرير هذه العلوم ، وتنقيتها من الشوائب ، وتطويرها ، وتنميتها ، وصقلها ، وإصلاح فاسدها مسترشدين

بالمنهج العلمى العام الذى رسمه للمسلمين مصدرا التشريع الإسلامى العظيمان : القرآن والسنة .. كل ذلك فيما لم يكن من خصائص الشريعة الإسلامية بيانه ، وتحديد أصوله وفروعه ، كأصول الاعتقاد وأحكام العبادات وأحكام المعاملات ونظم الحياة الفردية والاجتماعية التى رسم الإسلام للناس طريقها وأوضح لهم صراطها المستقيم (١) .

إن الدولة الإسلامية الجديدة التى عملت على نشر الإسلام فى الممالك المختلفة والتقت بحضارات الأمم لم تأخذ من الحضارات إلا لكى تعطى.. إنها لم تقبل التراث الفكرى اليونانى وغير اليونانى إلا لكى تهضمه بعقليتها الجديدة ، وتتمثله بمنطق تفكيرها ، وروح عقديتها ، وبكل أصالة تاريخها وخصبه ، وترده بعد ذلك أضعافًا مضاعفة .

فقد أقبل المسلمون على علوم اليونان ، والهنود ، وأصحاب الحضارات القديمة يغترفون منها ما كان فى وسعهم أن يغترفوا ، لكن تلك العناصر التى التهموها قد تحولت على أيديهم لتكون غذاءً جديدًا (٢) .

---

(١) عبد الرحمن حسن حنبكه الميدانى ، أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها ص ١٢٢ . ط : دار القلم . دمشق ، بيروت ١٤٠٠هـ .

(٢) الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا ، أصالة الفكر العربى ، ص ١٦٧ .

إن العلماء وهو يستوعبون نتاج الحضارات القديمة والمذاهـــب والأفكار ، ويستعينون بها فى عملية البناء كان رائدهم فى ذلك البحث عن الحقيقة لذاتها و(**الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها**) .

لقد أخذ المسلمون ما أخذوا لأنهم طلاب حقيقة ، وهذا حســـبهم إنهم لم يقدموا على النقل والاقتباس للتجمل والزينة ، وليباهوا النـــاس بكثرة الأحجار الكريمة ، والأساور والعقود ، والخلاخيل ، بل لبنـــاء الذات ، واستكمال أسباب الحياة .

لقد كان المسلمون ينظرون فى كل شىء ، ويبحثون فى كل فـج، ويستفيدون بكل حديث وقديم ، ينقبون عن كل علم ، ويســيرون وراء كل حكمة ، ويأخذون العبرة من الماضى ، وينطلقـــون للمســتقبل ، يستفيدون من القديم ، ويبنون الجديد .

وكانت لهم جولات وجولات فى كل ناحية من نواحى الحيـــاة ، فى العلم ، وفى الحكمة ، وفى الأخلاق ، وفى الفلسفة ، وفى الطب ، وفى الهندسة ، وفى الجغرافيا ، وفى الفلك ، وفى الصناعة ، وفـــى الكيمياء ، وفى الصيدلة ، وفى الزراعـــة ، وفـــى التـــاريخ ، وفـــى القصص ، وفى اللغة ، وفـــى الحيـــوان ، وفـــى الفيزيـــاء ، وفـــى الأحجار ، وفى البحار والمعادن [١] .

---

(١) انظر : الدكتور توفيق الواعى ، الحضارة الإسلامية مقارنـــة بالحضـــارة الغربيـــة ، ص ٣٨٩ .

ولم يدخر المسلمون جهدًا فى البحث عن تراث الأمم السابقة . واضطلع المسلمون رغم ما عانوه من جهد بالتعرف على الثقافة اليونانية القديمة والفارسية ، والهندية ، وغيرها من الثقافات التى نما إلى علمهم أنها موجودة فى أى صقع أو قطر [١] .

لقد امتصت العقلية الإسلامية الغذاء الذى قدمه ميراث العالم القديم الضخم بعد أن أصبح متوفرًا باللغة العربية فأدى ذلك إلى قيام مدارس الفلسفة ، والعلوم ، والفنون المختلفة ، التى سيطرت على أفق الحضارة الإسلامية نتيجة لتطبيق مبادئ الإسلام على أشكال المعرفة المختلفة ، التى ورثها المسلمون عن الشعوب ذات الحضارات العريقة [٢] .

وليس هناك شك فى أن الفتح الإسلامى للامبراطورية الفارسية ، ودخول الفرس بمواريثهم الحضارية الغنية فى إطار الدولة الإسلامية قد أتاح أوسع المناسبات لتفاعل حضارى واسع ، وعميق وخلاق بين الحضارة الفارسية وبين الفكر الإسلامى .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٩ .

(٢) الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا ، أصالة الفكر العربى ، ص ٢٢١ .

لكن الراصد لهذا التفاعل بين الفكر الإسـلامى ، إبـان تبلـور حضارته ، وبين الميراث الفارسى يستطيع أن يميز بين ما (قُبِـلَ) وبين ما (رُفِضَ) من هذا الميراث [1] .

لقد فتحت فارس على عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضـى الله عنه وكذلك فتحت الأودية الزراعية للأنـهار الكـبرى فـى الدولـة الإسلامية : النيل ، وبردى ، ودجلة ، والفرات ولـم يـتردد عمـر ابن الخطاب فى تبنى النظام الفارسى فى ضريبة الأرض الزراعيـة ، والذى كان يسمى (وضائع كسرى) وظل سائدًا ومعمولاً به حتـى عدل فى ظل الدولة العباسية .

فأنت ترى أنه فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنـه . تـم استلهام خبرة وتجربة حضارية فارسية ، فى طرق تقدير الضريبـة على الأرض الزراعية . ولكن المسلمين الناشـرين للإسـلام ، فـى فارس كانوا حذرين كل الحذر ، وشديدى الرفض والمقاومـة لكـل ما هو (خصوصية حضارية) فارسـية ، تتعـارض مـع معـايير الإسلام ، وجوهر معتقداته ، وخصائصه الحضارية المتميزة .

لقد رفضت الخلافة الإسلامية ـــ وهى نمط متميز فى الحكـم ـــ ما تميزت به مواريث الحضارة الفارسية فى نظام الحكـم وفلسـفته السياسية التى كـانت تـرى رأس الدولـة " كسـرى " ابنـا للإلـه

---

(١) الدكتور محمد عمارة ، الغزو الفكرى وهم أم حقيقة ، ص ٢٠٦ .

(هورا ــ مزدا) يحكم باسمه ، ونيابة عنـــه ، زاعمـــا أن لقانونـــه وتنفيذه قداسة الإله والدين [1] .

كذلك رفضت الحضارة الإسلامية ، ميراث الفرس فـــى النظـــام الطبقى المغلق لتعارضه الجذرى مع فلسفة الإسلام فى المساواة بيـــن الناس فى الحقوق والواجبات .

والذين يقرأون مصنفات علماء الأمـــة الإســـلامية فـــى المِلـــل والنِّحل ، وصراعهم الفكرى مع الفرق والمذاهب غـــير الإســـلامية يدركون المقاومة الباسلة ، التى واجه بها العلماء مذاهـــب الفـــرس ، وعقائدهم وفلسفاتهم [2] .

فعلى حين فتحت الأبواب للتجارب الإنسانية العلميـــة ، ولعلـــوم التمدن العلمى كان الحذر بل والمقاومة للفلسفات والمعتقدات المخالفـة للمعايير الإسلامية ، إن فى السياســـة أو فـــى الاجتمـــاع ، أو فـــى الدين [3] .

لقد أخذ المسلمون ينشرون الإسلام خارج الجزيرة العربية بيـــن الشعوب التى كانت تنتظر الإسلام ونشأت الحضارة الإســـلامية فـــى كنف القرآن الكريم والسنة النبوية . وكانت الأمم الداخلة فى الإســـلام

---

(١) انظر : الدكتور محمد عمارة ، الغزو الفكرى وهم أم حقيقة ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٠٩ .

ذات حضارات مزدهرة ، فنشأ بين حضاراتها والإسلام مزج وتفاعل ولقاء .

وبدت أعظم مظاهر هذا المزج فى النظم الاجتماعيـــة ، والآراء العقلية واشتراك الدعاة إلى الإسلام بأهل البلاد التى فتحت صدرهــــا للإسلام فى الحركة الاجتماعية والاقتصادية .

وبهذا كله امتزجت أمور أخرى كثيرة ، وتأثرت بهذا الامـــتزاج كل مرافق الحياة والنظم السياسية والاجتماعية ، والطبائع العقليـــة ، وكانت الأمم المفتوحة للإسلام أرقى من العرب مدنية ولهذا أســـهمت فى نشأة الحضارة الإسلامية .

وحضارة مصر والشام والشمال الأفريقى ، كانت ذات مــــيراث بيزنطى استفادت منها حضارة الإسلام فى (تدوين الدواوين) وهـــو خبرة إدارية بيزنطية .

ويخبرنا التاريخ : أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية سعى إلـــى مدرسة الإسكندرية يتعرف على ما فيها من تراث .

وقد كتب إلى أبيه يزيد بن معاوية ، يبشره بنجاح سعيه ، وبلـوغ ما أراد فكتب قصيدة أرسلها إلى أبيه فى هذا الشأن يقول فيها:

أيا راكبا نحو الشام عشيـــــــة

يـــؤم دمشقًا قــف فاحمل كتابيا

وبلغ يزيد حين يتلو رسالتـــى

وقل خالدًا قـد نال ما كان راجيًا

ألا قد ملكت الشمس والبدر عنوة

وحــزتهما من بعد طول عنـــائيا

وخالد بن يزيد يقصد بالشمس الذهب ، وبالبدر الفضة ، وكـــانت صناعة الكيمياء آنئذ قائمة على أساس تحويل المعادن الخسيسة إلـــى الفضة والذهب [١] .

وبهذا بدأت حركة الترجمة للعلوم الطبيعية والتجريبية ، وفنـــون التمدن العلمى والتى سميت بعلوم الصنعة .

وإذا كانت الحضارة الإسلامية قد تفاعلت مع حضـــارة مصـــر والشام ، وتبنت ما فى هذه المجتمعـــات مـــن المعـــارف والعلـــوم ، والتجارب الإنسانية فإنها فى الوقت نفســـه حـــاربت (الغنوصيـــة) والهلينية فى الفلسفة ، وعارضت عقائد ومذاهـــب المســـيحية التـــى أخرجتها الروح الهلينية ، عن نقاء عقيدة التوحيد .

والهند قارة تسكنها مجموعـــة شـــعوب ، مختلفـــة الأجنـــاس ، والمذاهب الدينية ، والفكرية ، والاجتماعية وجهود الهند فى التعليـــم قديمة جدًا . وأكثر نتائج الهند الفكرى ، كتب باللغـــة السنســـكريتية

---

(١) انظر : الدكتور أحمد السايح ، أضواء على الحضـــارة الإســـلامية ، ص ٨١ ، ط : دار اللواء ، الرياض ، ١٤٠١هـ .

وهى معروفة الأصول ، مما ساعد على معرفة جميع نواحى الثقافة الهندية .

والباحث فى الحضارة الهندية سوف يجد أن الهنود أسهموا فى جميع العلوم القديمة وأشهر علوم الهنود : الفلك والرياضيات ، وأقدم الرسائل الفلكية هى كتاب (السد هانتا) حوالى ٤٢٥ق.م ثم أبحاث (أريابهاتا) أعظم الفلكيين والرياضيين الهنود ، الذى علل الكسوف والخسوف فى حركة الأرض حول الشمس .. أى قال بدوران الأرض حول الشمس ، وشرح كروية الأرض فى دورتها الحيوية حول محورها كما عرف هذا الرياضى النظام العشرى .

الفيزياء والكيمياء : وجدت فى الهند مذاهب فيزيائية مختلفة وقال بعضهم : إن الضوء والحرارة ظاهرتان مختلفتان لعنصر واحد ، وأن الشمس مصدر الحرارة فى العالم . وفسر آخر الضوء بأنه مؤلف من ذرات صغيرة تنبعث من الأشياء وتطرق العين أما الكيمياء فتقدمت مع تقدم الطب الهندى والصناعة الهندية وكان الرومان ينظرون إلى الهند كأمهر أمة فى الصناعات الكيميائية مثل الصباغة والدباغة . والصابون ، والزجاج ، ونوع من الأسمنت .

الطب : وأشهر ما اشتهر به الهنود الطب وكان أطباء الهنود منذ القرن السادس قبل الميلاد يعرفون الأوعية الدموية ، والأنسجة الدهنية ، والضفائر العصبية ، والجهاز الليمفاوى ، وأنواع العضلات

وحركاتها ، ويعرفون تجبير العظام ، ويفـــهمون عمليـــة الـــهضم ، وتطور الجنين ، ويسرعون فى ضــــرورة فحـــص الزوجيـــن قبـــل الزواج [١] .

ولا شك أن تفاعلا حضاريًا فى مختلف العلوم والفنون قد أخـــذ دوره فى محيط الحضارة الإسلامية من واقـــع تـــأثيرات التمـــازج والمخالطة فعرف المسلمون من الرياضيات الهندية كتـــاب (الســد هانتا) السند هند [٢] .

وفى أيام أبو جعفر المنصور ، قدم كثير من علماء الهند وكـــان معهم (السد هانتا) السند هنـــد باللغـــة السنســكريتية وقـــد كلـــف أبو جعفر العلامة أبا إسحاق بن حبيب الغزازى بتعريبه ففعل وقـــام الخوارزمى بتصحيحه ومراجعته [٣] .

والمسلمون استفادوا من الأرقام عن الهنود فهذبوها وكونوا منـــها سلسلتين عرفت إحداهما بالأرقام الهندية وعرفت الثانية باسم الأرقـــام الغبارية [٤] .

---

(١) أنور الرافعى ، الإسلام فى حضارته، ونظمه، ص٥١١،٥١٢، دار الفكر١٣٩٣هـ .

(٢) الدكتور مصطفى الشكعة ، معالم الحضارة الإســـلامية ، ص ١٣٠ ، ط : دار العلـــم للملايين ، بيروت .

(٣) فيليب طرزى ، خزائن الكتب العربية فى الخافقين ، جـ ١ ص ٥٠ ، ط : بيروت .

(٤) الدكتور أحمد السايح ، أضواء على الحضارة الإسلامية ، ص ٩٤ ، ط : دار اللـــواء بالرياض ١٤٠١هـ .

فعندما التقى الإسلام بمواريث الحضارة الهندية ، أخذ ما يتناسب معه ، وترك ما لا يتفق مع مبادئ الإسلام مما هو خصوصية حضارية فالبيرونى ٣٦٢-٤٤٠هـ- ٩٧٣- ١٠٤٧م ، الذى عاش فى الهند أربعين عامًا عقب الفتح الغزنوى لبعض أقاليمها درس تاريخ الهند وتراثها وحضارتها دراسة العبقرى المتفرد ، واستطاع أن ينهض بمهام وأعباء البعثة العلمية هناك .

البيرونى هذا يعلمنا : أن أسلافنا ، ميزوا بين العلوم الطبيعية ، والعلمية ، والتجريبية ، التى أخذوها وطوروها وبين ديانات الهند ومذاهبها وفلسفاتها التى رفضوها لتعارضها مع التوحيد الإسلامى ، ومع إلهية المصدر الدينى فى الإسلام (١) .

ويكاد يكون معروفًا أنه : ليس فى الحضارات القديمة حضارة، تثير الدهشة والإعجاب كالحضارة اليونانية ، لأن هذه الحضارة ، جمعت آثار الحضارات البابلية ، والمصرية ، والفينيقية ، والفارسية، ثم أضافت إليها آثار فنية رائعة ، ومذاهب فكرية مبتكرة ، ومبادئ خلقية سامية ، يتجلى فيها الإبداع بأقوى مظاهره .

ولا شك أن للعوامل التاريخية ، والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية ، تأثيراً فى تكوين الحضارات ولكن هذه الأسباب

---

(١) انظر : البيرونى ، تاريخ الهند أو تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة ، ص ٨٠ بتصرف .

لا تكفى لتفسير ما تميزت به حضارة اليونـــان مـــن قـــوة الإبـــداع والابتكار .

لقد غربل اليونانيون آثار الحضارات القديمة ، ومحصوها أعمق تمحيص فحذفوا منها ما حذفوا ، واستبقوا منها مـــا اســـتبقوا ولكـــن حضارتهم ليست حصيلة الحضارات الســـابقة فحســـب وإنمـــا هـــى حضارة متميزة أطلقت حرية العقـــل ، وجـــاوزت حـــدود الزمـــان والمكان [١] .

ويذكر العلماء : أن الحضارة اليونانية ، عرفت باسم الحضـــارة الهيلينية ، نسبة إلى (هيلين) الجد الأكبر الخرافى للشعب اليونـــانى وقد انتشرت هذه الحضارة الهيلينية مع امتداد نفوذ الإغريق التجـــارى الاستعمارى ، ولما تم فتح الإسكندر المقدونى الشرق امتزجت الثقافـــة اليونانية ، بروح الشرق ، فنشأت حضارة مزيجة عرفت بالهيلينيـــة وأخصبت عدة مراكز فى الشرق [٢] .

ولما جاء الإسلام وجد فى هذه المراكز حضارة يونانيـــة ، فـــى الإسكندرية ، وفى أنطاكية وغيرها . وكان لابـــد لـــهذه الحضـــارة الإغريقية أن تظهر على مسرح الوجود ، عنوانًا على حضارة هـــذه الأمة الآرية ، التى علمت الإنسانية جمعاء الكثير من أنمـــاط الفكـــر

(١) الدكتور جميل صليبا ، تاريخ الفلسفة العربية ، ط : دار الكتاب اللبنانى سنة ١٩٨٦م.
(٢) انظر : أنور الرفاعى ، الإسلام فى حضارته ونظمه ، ص ٥٠٠ .

وسياقاته ولكن كان لها النسق الخاص بها ، والخاص بها وحدهـا ، المتصل ببيئة المجتمع اليونانى ، ولذلك حين قـام الإسـلام بوضـع فلسفته المعبرة عن حضارته كان لابد من اختلاف عنيف ، ومن جدل قاس وتعارض فى المنهج ، وفى المادة بينه وبين الفلسفة اليونانية[1].

لقد سعى المسلمون إلى ترجمة العلوم الطبيعية اليونانية، آخذيـن إياها من مصادرها الشرقية فى البلاد التى فتحوها فـترجموا تـراث اليونان فى الطب ، والكيمياء ، والهندسة ، والرياضيات ، والميكانيكا (الحيل) ، والزراعة ، والمناظير ، والحساب ، والمنطق ، وغيرهـا من العلوم الطبيعية والعلمية ، والتجريبية .

ولكن المسلمين زهدوا ، بل انصرفوا عن نقل الآداب اليونانيـة لأنها كانت وثنية تتحدث عن الآلهة ، وكيف كان يصـارع بعضـها بعضًا ، وفيها فوق هذا كله نقائض البشر .

فهناك ميادين فى المعتقدات ، والإنسانيات اليونانية ، قد نفر منها المسلمون ، فضربوا عنـها صفحـاً ولـم يترجموهـا ، ولا حتـى للمتخصصين من العلماء ، وذلك مثـل عقـائد الوثنيـة اليونانيـة ، وأساطير آلهتها ، وآداب اليونان وفنونها [2] .

---

(١) الدكتور على سامى النشار ، نشأة الفكر الفلسفى فى الإسـلام جـ ١، ص ١٠٢ ، ط : دار المعارف بمصر ١٩٧٧م .

(٢) انظر : الدكتور محمد عمارة ،الغزو الفكرى وهم أم حقيقة ، ص ٢١٢ .

إذن : استفاد المسلمون من الحضارة اليونانية فى حدود قـــانون (التفاعل الحضارى) الذى يميز دائمًا وأبدًا بين ما هو (خصوصيــة حضارية) وبين ما هو (مشترك إنسانى عام) .

وإذا كان الأمر ــ كما ذكرت ــ فلماذا أعطى المسلمون وزنًـــا كبيرًا ، لفلسفة اليونان ، ترجمة وشرحًا حتى تضخمت آثارها ، فـــى تراث المسلمين الحضارى علمًا بأن هذه الفلسفة اليونانية ، لا تدخـــل فى قانون التفاعل الحضارى ولا تناسب العقائد الإسلامية ؟

إن الباحث بعمق يجد أن المسلمين حين انفتحوا على الحضـــارة اليونانية ، أخذوا منها ما يتفق مع خصوصيتهم الحضارية ثم واجــهوا ما عند اليونان من النمط الهلينى ، فى النظر والفكر والتـــى كـــانت (الغنوصية)أبرز مذاهبه فى نظريات المعرفة .

كانت (الهلينية) كما وجدها المسلمون فى البلاد التى فتحوهـــا هى (اليونانية الشرقية) التى امتزج فيها الفكر الفلسفى اليونـــانى ، بروحانية الشرق ، ومع هذه (الهيلينية) كانت أولى معارك الإســـلام الفكرية .

حيث إن المسلمين الذين أبدعوا عقلانيتهم الإسلامية ، المتمـــيزة أنشأوا علم الكلام الإسلامى ، الممثل لفلسفة الإسلام المتمـــيزة منـــذ النصف الثانى من القرن الهجرى الأول ، ثم اتجهوا بعد ذلـــك إلـــى ترجمة الفلسفة اليونانية ، وترجمة عقلانية أرســـطو أولاً وبـــالتحديد

لا ليتخذوا منها فلسفة لهم وللإسلام ، وإنما ليردوا بها كسلاح يونانى على الهيلينية وثمرتها (الغنوصية) التى هى تأثيرات يونانية مزجت بباطنية الشرق ، وروحانية الشرقيين .

وأنصار الغنوصية : كانوا ـ كمتغربى هذا الزمان من أبناء الأمة الإسلامية ـ أثرًا يونانيًا فى الشرق ، وامتدادا شرقيًا لفكر اليونان فعمد العلماء إلى ترجمة العقلانية اليونانية ، ليردوا بها على أنصار اليونان ، وكأنهم أرادوا أن يقولوا لهم : إذا كنتم لا تحترمون إلا ما هو وافد ، ومستورد ، ويونانى الصنع ، فها نحن نجابهكم بأرسطو المعلم الأول عند اليونان، وأبرز عقولهم الفلسفية بإطلاق . نجابهكم بالعقلية اليونانية نقضًا لغنوصية الأفلاطونية المحدثة اليونانية ، استخدامًا للأسلحة التى تحترمون وتعظمون [1] .

ولا يخفى أن هذه الرؤية العقلية ، التى توضح سبب اهتمام المسلمين بالفلسفة اليونانية تنهض الأدلة المختلفة لتأييدها فى قوة .

فلقد كانت الهيلينية ، و(الغنوصية) الباطنية هى تغريب ذلك العصر ، والغزو الفكرى الذى أصاب به الغرب اليونانى الشرق منذ انتصار الإسكندر الأكبر (٣٥٦ق . م ـ ٣٢٣ق . م) على الدولة الفارسية (٣٣٣ق . م) وبنائه امبراطوريته الشرقية الأولى . فلما ظهر الإسلام خاضت ضده المعارك فى البلاد التى فتحها المسلمون .

(١) الدكتور محمد عمارة ، الغزو الفكرى وهم أم حقيقة ، ص ٢١٣ بتصرف .

لكن الإسلام بعد أن بلور عقلانيته المتميزة تقدم فاستعان بالعقلانية الأرسطية ضد الهيلينية والغنوصية ، فكانت ترجمة الفلسفة اليونانية ، استعانة بحقيقة الفكر اليونانى على هزيمة صورته الشرقية المهجنة ، وبسلاح معترف به من الغنوصيين [1] .

ويقول المستشرق الألمانى بيكر كارل " هينرش " ١٨٧٦ـ ١٩٣٩م : " إننا نرى كفاح المسيحية من أجل استقلالها ، وتوكيد ذاتها . فإزاء الروح اليونانية المجسدة فى (الغنوص) يتكرر من جديد فى الإسلام فى القرون الأولى تحت أسماء أخرى ، فكما كانت المسيحية الأولى معادية للروح الهيلينية كان الإسلام فى الصدر الأول على العموم معاديًا هو الآخر للروح الهيلينية .

والميزة الرئيسية للقرآن هى أنه كان يؤثر تأثيرًا مضاداً للروح الهيلينية ، فى عصر تغلغلت فيه الهيلينية ، وفى اللحظة التى تخطى فيها الإسلام حدود مهده الأول بدأ الصراع والتصادم . إن المانوية والزرادتشية كانتا بالنسبة للإسلام عدوتين خطيرتين، وأن (غنوص) المانوية ، والمذاهب الشبيهة بها كانت خطيرة على الإسلام خطرًا مباشرًا لذلك نرى أن أول مدرسة كلامية فى الإسلام ونعنى بها المعتزلة قد استفادت بعضًا من أصولها ، ومسائل بحثها عن طريق كفاحها ضد المانوية .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢١٤ .

وفى كل هذه الألوان من الكفاح تكونت جبهة كفاح فريـــدة فـــى بابها ؛ فالدولة والمذهب الدينى الرسمى ، يسيران هنا كما يسيران فى كل مكان جنبًا إلى جنب ، وفى صف واحد لكنهما فى كفاحهما ضـــد (الغنوص) الذى لا يعترف لأحد بسلطان يهيبان بالروح اليونانيـــة الحقيقية (الفلسفة اليونانية) كى تساعدهما .

لقد كان الغنوص ، يحارب الإسلام دينياً وسياســـيًا وفـــى هـــذا النضال استعان الإسلام بالفلسفة اليونانية وعنى بإيجـــاد عـــالم مـــن العلوم العقلية .

فالمسلمون قد تحالفوا إذا مع التفكير اليونانى والفلسفة اليونانيـــة ضد (الغنوص) الذى كان خليطاً من المذاهب القائمة علـــى النظـــر والمنطق وعلى مذاهب الخلاص الباطنية .

ومن هنا نستطيع أن نفسر حماسة الخليفة المأمون للعمل علـــى ترجمة أكبر عدد ممكن من مؤلفات الفلاسفة اليونانيين إلى العربية .

وقد اعتاد الناس أن يفسروا هذا حتى الآن بإرجاعه إلـــى ميـــل المأمون إلى العلم وحبه له ، لكن إذا كانت الرغبة فى ترجمة كتـــب الأطباء القدماء ، قد نشأت عما اشتهرت به المدارس الطبية الكـــبرى فى حاجة عملية إلى هذه الكتب فلعل ترجمة كتب أرسطو أن تكـــون قد نشأت بالضرورة عن حاجة عملية كذلـــك . وإلا فإنـــه إذا كـــانت المسألة مسألة حماسة للعلم ، ورغبة خالصة فى تحصيله فحسب لكان

(هوميروس) أو أصحاب المآسى من بين منن ترجمت كتبهم أيضًا لكن الواقع هو أن الناس لم يحفلوا بها ، ولم يشعروا بحاجة ما إليها [١] .

وإن الباحث فى انفتاح الغرب على الحضارة الإسلامية ، يجد هذا الانفتاح ، قد تحقق ، ولا يخفى أن المسلمين قضوا فى حكم جزيرة صقلية قرابة ثلاثة قرون ، وخلال ذلك كانت الحضارة الإسلامية مزدهرة ازدهاراً شد انتباه غير المسلمين ، فلما استولى الأوروبيون على جزيرة صقلية استفادوا من الحضارة الإسلامية ، واستطاعوا أن ينقلوا إلى لغاتهم تراث المسلمين الحضارى المزدهر فى جزيرة صقلية مما كان له أثر واضح فى النهضة الأوروبية الحديثة .

إن المسلمين استطاعوا فى قوة أن يقيموا حضارة الإسلام فى بلاد الأندلس ، وأصبحت بلاد الأندلس فى ظل الحكم الإسلامى ، بلاد الحضارة والعلم مما جعل علماء أوروبا يذهبون إليها ليتلقوا العلم على يد علمائها ، ويترجموا تراثها من العربية إلى اللاتينية .

لقد كانت قرطبة فى عهد عبد الرحمن الثانى ، مركزًا رائعاً للجمال المادى والنشاط الفكرى .. ونما ذلك فى عهد عبد الرحمن

---

(١) بيكر كارل هينرش ،التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية ، ص٩،٧ ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى ، ط : ١٩٦٥م .

الثالث . وكان شديد العناية بالعلوم والآداب ، وتزايدت هذه النهضة في عهد الحكم الثاني . الذي كان إلى جانب علمه يرسل مندوبين إلى جميع بقاع العالم لابتياع الكتب أو استنساخها . ووفق بذلك إلى إنشاء مكتبة تضم أربعمائة ألف كتاب .

وإذا كانت قرطبة ، وغرناطة ، وغيرهما من مدن حضارية قد سقطت في أيدي غير المسلمين فإن العلوم والآداب الإسلامية والحضارة واصلت ازدهارها في ظل النقل والترجمة ، والإبداع .

وكانت الحروب الصليبية صراعًا بين الكنيسة والشرق الإسلامي ، وهدف هذه الحروب تخليص الأراضي المقدسة من المسلمين ، وقد استمرت قرنين من الزمان ، ومن المؤرخين من يرى أن هذه الحروب هي العامل الوحيد في تقدم أوروبا حيث تم نقل الصناعات والفنون الإسلامية .

ويرى بعض العلماء : أن الشرق الإسلامي قد أثر في الغرب المسيحي إبان الحروب الصليبية من أربع نواح هي .

١ــ في الكنيسة البابوية إذ قامت في بيت المقدس عام ١١٠٠م مملكة دنيوية بدلاً من(الثيوقراطية) الدينية التي كان يحلم بها البابا .

٢ــ كما أثرت الحروب في الحياة الداخلية والاقتصادية ، في جميع الممالك إذ نشأ نوع جديد من الضرائب على ممتلكات

الأشخاص كما ساعدت تلك الحروب على الإقـلال مـن أراضـى الأشراف .

٣ــ كما أثرت الحروب فى العلاقات الخارجية للـدول ونظـام أوروبا ، وذلك بتأثيرها فى الكنيسة من ناحية وبإيجاد رابطة جديـدة للوحدة الأوروبية .

٤ــ كما أثرت تلك الحروب فى العلاقات القائمة بيـن أوروبـا وآسيا فنهضت حركـة الارتيـاد والرغبـة فـى الاسـتزادة مـن المعلومات [١] .

لقد اختلط الأوروبيون بمن هم أرقـى منـهم فاسـتفادوا مـن الحضارة الإسلامية فساعد هذا على قيام النهضة الأوروبية الحديثة .

إن أوروبا استطاعت أن تتفاعل مع الحضارة الإسلامية ، وتـأخذ عنها ، وتستفيد منها فيما هو (مشترك إنسانى عام) أما ما كان مـن خصوصية للحضارة الإسلامية فقد رفضها الغرب .

لقد أقبل الغرب على امتلاك رصيد الحضارة الإسـلامية مـن العلوم الطبيعية علوم المادة وظواهرهـا ، وخصائصـها .. وعلـوم التمدن المدنى والعلمى مثل علوم الطب والصيدلة وقواعـد النظافـة العامة والخاصة ، وعلوم الزراعة ، والنباتات ، والحيوان وفنـون ،

---

(١) انظر : الدكتور توفيق الطويل ، الحضارة الإسلامية الأوروبيـة ، ص ١٦٧، ١٦٨ ، بتصرف .

وعلوم الحرف ، والصناعات ، والتجارة ، والمواصلات ، ووسائل الاتصال ، وفنون القتال ، واستخدامات الحرب ، وطبقات الأرض وأنواعها والمعادن ، والبصريات ، والمناظير ، والكيمياء ، والفلك والرياضيات ، من جبر وهندسة وحساب ، والجغرافيا والرحلات ، وعلوم البحار ، والملاحة فيها .. وغير ذلك من علوم وفنون [1] .

لقد أخذ الغرب ، ما سبق أن أخذناه نحن ، عن أسلافهم اليونان ، وغيرهم من الفرس والهنود وما أخذناه من مدرسة الإسكندرية من علوم الصنعة مضافًا إليه إبداع المسلمين .

لقد أخذ الغرب ، من الحضارة الإسلامية ، ما هو (مشترك إنسانى عام) وترك من الحضارة الإسلامية ، ما هو خصوصية حضارية إسلامية .

لقد اجمعت تيارات فكر النهضة الغربية على رفض أبرز خصائص الحضارة الإسلامية وهى خصيصة " التوحيد " وخصيصة " الوسطية " وخصائص أخرى كثيرة تتصل بالإسلام ، وعقائده.

ورفض الغرب لهذه الخصائص الإسلامية هو الذى ميز الحضارة الغربية بطابعها الأصيل : الطابع المادى .

---

(١) انظر : الدكتور / محمد عمارة ،الغزو الفكرى وهم أم حقيقة ، ص ٢٤٨ .

فالحضارة الإسلامية قامت بعملية (توفيق) ما بين الحكمة والشريعة ، ولكن الحضارة الغربية تميزت بإخراج الدين من إطار العقل ، كما أخرجت الدنيا والدولة وعلوم التمدن من إطار الدين .

والحضارة الإسلامية ربطت بين الدين والدولة ، والحاكم والمحكوم ، والحضارة الغربية فصلت بين الدين والدولة فى خصوصية حضارية فكانت العلمانية .

الحضارة الإسلامية وفقت بين الفرد والمجموع فى ربط متناسق ، أما الحضارة الغربية فقد انحازت للفرد فى (ليبرالية) واضحة .

والحضارة الإسلامية ربطت الأعمال بالحكمة منها ، والوسائل بأخلاقيات الغايات المبتغاة من ورائها ، أما الحضارة الغربية فكان اهتمامها قائمًا على اللذة والشهوة واللحظة ، وكانت سياسة الحضارة الغربية تعنى (بالميكيافيليه) (فن الممكن من الواقع بصرف النظر عن الأخلاق) .

والحضارة الإسلامية وازنت بين سيادة الله وحاكميته ، وبين سلطان الأمة وسلطاتها ، فى حين كانت الحضارة الغربية تقوم على أن الإنسان سيد الكون يفعل ما يشاء [1] .

---

(١) انظر : الدكتور محمد عمارة ، الغزو الفكرى وهم أم حقيقة ، ص ٢٤٩، ٢٥٠ بتصرف .

إذن وبكل تأكيد : هناك ما هو (مشترك إنسانى عـــام) تـــأخذه الحضارات من بعضها وتساهم فيه كل حضارة بالعطـــاء المتجـــدد ، الذى يزيده قوة وفائدة .

وهناك ما هو خصوصية حضارية لا تقبل الحضارات الآخذة أن يكون ضمن المأخوذ ، ونجد ذلـــك واضحًـــا فـــى أعمـــال أوروبـــا الناهضة ، فحينما ترجمت أعمال الفيلسوف المسلم ابن رشد أخـــذت من هذه الأعمال ما يتصل بالفلسفة اليونانية ، ورفضت أخذ ما هـــو خصوصية حضارية إسلامية .

فالرشدية اللاتينية التى أخذتها أوروبا هى شروح ابن رشد علـــى أرسطو حكيم اليونان ، أما إبداع ابن رشد الفيلسوف المسلم والمتكلـــم والقاضى والفقيه ، والذى تمثل فى مؤلفاته : (فصل المقال فيما بيـــن الحكمة والشريعة من الاتصال)، (وتهافت التـــهافت) و (منـــاهج الأدلة) ، وفقد رفضته أوروبا رفضًا تامًا .

ويقول الفريد جيوم (إن علينا أن نضع حدًا فاصلاً بين ابن رشد كفيلسوف وبان رشد كشارح لأرسطو) (١) .

وإذا كانت الحضارة الغربية قد رفضت منـــذ البدايـــة الرشـــدية الإسلامية ؛ كما تمثلت فى مؤلفات ابن رشد الإبداعية ، فإن الحضارة

---

(١) الفريد جيوم ، الفلسفة وعلم الكلام ، ص ٣٩٤ ، بحث منشور ضمن كتـــاب تـــراث الإسلام ـــ سلسلة عالم المعرفة .

الغربية ، قد رفضت أيضًا إضافات ابن رشد التى تخللت شروحه على أعمال أرسطو . ونهض بهذه المهمة القديس (توماس الأكوينى " ١٢٢٥ــ ١٢٧٤م) ، ولذا نرى الجامعات الغربية تتبنى أرسطو فى ذات الوقت الذى تحرم فيه فكر ابن رشد ، وتحكم بالكفر على مائتين وتسع عشرة مسألة تمثل إضافات ابن رشد على الشروح التى قدمها لأعمال حكيم اليونان [١] .

ومما لا يحتاج إلى بيان : أنه كلما استهلت الحضارات (ما هو مشترك إنسانى عام) تقدمت الحضارات ، واستفادت ، وازدهرت ، وانتشر الأمن .

والتفاعل الحضارى ضرورة إنسانية ، لابد منها لقيام الحضارات ، وتقدم الإنسان فى كل ما من شأنه أن يأخذ بيد الإنسان ويشيع فى المجتمعات الإنسانية السلام والأمن .

أما الانغلاق الحضارى فهو قاتل للإنسان والتبعية الحضارية هى الأخرى قاتلة لكل إبداع ولابد من حوار الحضارات .

لذلك كان لابد لهذه الأمة ، أن تعود إلى التفاعل الحضارى ، وتستفيد من حضارات الإنسانية ، ولابد من خروج الأمة الإسلامية ، من الاغتراف الزمانى والاغتراب المكانى ، وذلك بالربط بين الواقع

---

(١) المصدر السابق : ص ٣٦٠ ، ٣٩٤ .

والثوابت للحضارة الإسلامية ، وبيـــــن مصـــادر وعوامـــل التقـــدم المعاصر .

وليس هناك من وسيلة للربط غير الدين ، والعلم ، والحياة فـــى إطار من حرية الفكر ، وسياسة عقلانية للتقدم ، وتسامح مستنير [1].

فإن فعلت الأمة ذلك كان ذلك بداية فى طريق حضـــــارى ، وإن التقدم البشرى فى مختلف المراحل والمجـــالات ليـــس إلا حصيلـــة الإبداع الفكرى والتعاون ، والاحتكاك بين المجتمعات ولا عيـــب أن نأخذ من حضارات الأمم ما يفيدنا ولكن العيب أن نظل عالة على أمم الأرض نأخذ منها ولا نعطى .

ويجدر أن ندرك أن الانغلاق ليس بالموقف اللائـــق بـــالعقلاء ، ولا التبعية الحضارية بمفيدة أو ملائمة لمـــن يمتلكـــون خصوصيـــة حضارية إسلامية .

والعزلة الحضارية والجهل صنوان كلاهما تخلـــف ، وكلاهمـــا حجاب يمنع وصول الضوء، وكلاهما عقبة كأداء فى طريق التطـــور والتقدم .

ويكاد يكون مؤكدًا أنه لا توجد حضارة قامت بذاتها ، واكتفـــت بذاتها مستغنية عن غيرها ، وإنما هى نتيجة تطور حضارى دائـــم ،

---

(١) الدكتور محمود قمبر ، هدفية العلم فى الإسلام ، مجلة حولية كليـــة التربيـــة ، عـــدد رقم ٨ ، ص ٦٣ ، سنة ١٤١١هـ ١٩٩١م ، كلية التربية ـ جامعة قطر .

وتفاعل بين حضارات أخرى ، تفاعلت هى بدورهـا وغيرهـا مـن الحضارات فى الزمان والمكان .

والنمو الحضارى إنما يعتمد على التجارب الحضارية الأخرى ، وكلما ازدادت فرص الالتقاء ، والتفاعل بيـن الحضـارات ازدادت فرص الحياة والنمو والاكتساب والتعلم .

والأمة الإسلامية وهى تتطلع إلى مسـتقبل مشـرق لابـد وأن تخوض معركة بناء الذات وتجديدها ، مسوقة بقيم وأفكار ومواريـث لها فى وعيها فاعليتها القوية .

ولا يخفى أن الأمة الإسلامية تملك رصيدًا ضخمًـا مـن القيـم الهادفة وتوجيهات الإسلام ، وهذه القيم كفيلة عنـد اسـتثمارها بـأن تجعل الأمة الإسلامية فى وضع يسـمح لـها بـأن تنمـى فلسـفتها الحضارية الإنسانية ، وتتسابق مع أمم الأرض فـى بنـاء حضـارة إنسانية ، ومما هو معروف أنه ليس كل عمل يصدر مـن الإنسـان يسهم فى الحضارة الإنسانية .

وإنما ذلك العمل الذى ينمى الحضارة ، وينطلق مـن الإنسـان للإنسان .

محتويات الكتاب